
Bibliotheca Alexandrina
0013740

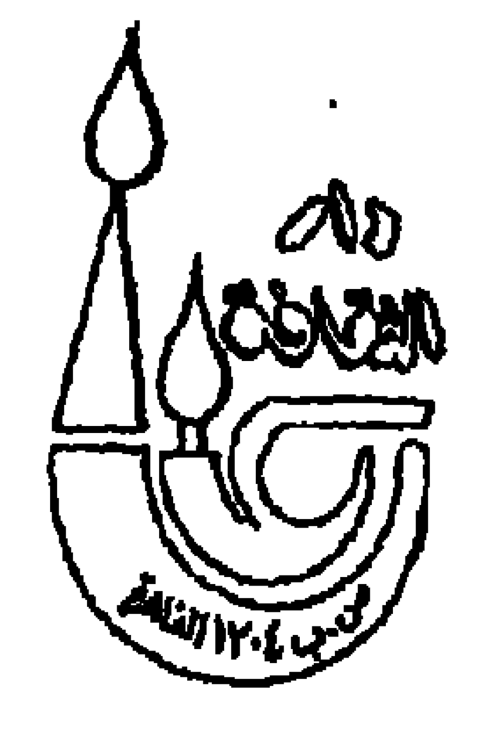
إله غير صامت

بقلم

فرانسيس شيفر

تعريب

جوزيف صابر



صدر عن دار الثقافة ص • ب ١٣٠٤ ـ القاهرة

١٠/٢١٣ ط ١/٧٨ (أ) ٣ ـ ٣
رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٨/٣٣٦١
طبع بالقاهرة الحديثة للطباعة ت ٩٣٤٣١٠

إهـــداء

الى زوجتى

التى تشجعنى على البحث والخدمة

(المعرب)

فى هذا الكتاب

تمهيد

هذا أول كتاب يترجم الى العربية من كتب دكتور شيفر فيلسوف المسيحية المعاصر • لذلك يلزم أن نقـــدم له بمقدمة تعرفنا بشـــخصه وبأسلوبه وبموضوع بحثه حتى يستطيع القـــارىء العـربى أن يتفهم الموضوع ويتعمق فيه •

من هو المؤلف :

دكتور فرنسيس شيفر قسيس أمريكى اشتغل راعيـــا لمدة عشر سنوات فى الولايات المتحدة الأمريكية حتى سنة ١٩٤٨ عندما دعاه الله مع أسرته للسفر الى أوربا والخدمة هناك حيث اتجـــه الى سويسرا وسكن فى احدى قرى الألب وأنشأ هناك عملا أطلق عليه لفظة لا برى L'Abir وهى كلمة فرنسية تعنى « الملجأ » • وقد استخدم الشاليه المجاور لمسكنه لاستقبال الزائرين من كل صوب فى العـــالم ومن كل قطاع فى المجتمع لا سيما الشباب • وقد أطلقت مجلة تايم على هـــذا العمل وصف « ارسالية الى المفكرين » • وقد عرف المكان كميناء روحى لكل ضال ولكل من يطلب اجابات على أسئلتهم الفلسفية الحـــائرة • ولجأ اليه كل من يبحث عن معنى الحياة أو هدفها • وقد تزايد عـــدد الزائرين من الشباب من طلاب الجامعات وأساتذتها والأطباء والكتاب والرعاة والمهندسين والموسيقيين والرسامين ومجموعات مختلفة أخرى وكان الحل الذى قدمه دكتور شيفر لمشكلتهم يتلخص فى حقيقة واحدة أساسية « وجود الله الذات غير المحدود الذى يمكن للانسان أن يتعرف عليه » •

كتبـــه :

كتب دكتور شيفر عدة كتب ، لكن ثلاثة منهـــا تلخص أفكاره الأساسية :

1 — The God who is there

2 — Escape from reason

3 — He is there and He is not silent

والأخير هو الكتاب الذى بين أيدينا وقد ترجمنا عنوانه « الله غير صامت » •

وهذه الكتب تناقش قضايا الفلسفة المعاصرة (وهذا سر صعوبة

هذه الكتب بالنسبة للقارئ العربى) فهذه الفلسفات غير معروفة الا لقلة من المثقفين وان كانت قد وصلت الى شبابنا بصورة ، مشوهة كما فى حركة الهيبيز •

ونحن اذ نقدم هذا الكتاب (آملين أن نتبعه بكتب اخرى) انما نقصد أن نحصن شبابنا ضد هذه الأفكار — فهى آتية لا ريب • وعلى الكنيسة أن تهتم بالسبق ولا تنتظر حتى يدق جرس الخطر ثم تنشغل بالدفاع فقط فى مختلف الميادين • ولسنا نريد أن نشرح فى هذه المقدمة الفلسفات التى تعرض لها الكاتب لكننا نقدم بعضا من الأفكار التى يرد عليها فى كتبه :

لقد مات الانسان — الله مات — الحياة بلا معنى — صار الانسان مجرد آلة — الخيال والمخدرات والجنس هى الوسيلة للهروب من الحياة ••• الخ •

ودكتور شيفر مقتنع تماما بأن المسيحية ليست مجرد ايمان اعمى لكن الله الحكيم عنده الرد على كل تساؤلاتنا • لذلك فهو يقدم لنا البراهين المنطقية التى ترد على الملحدين والوجوديين بقوة واقتناع •

اسلوب المؤلف :

ولدكتور شيفر أسلوبه الخاص : فهو يسترسل فى افكاره — رغم انها موزعة على اكثر من كتاب — لذلك تراه يشير الى أفكار ذكرت فى كتب سابقة ففى كتابنا هذا يشير دائما الى فكرة الطبيعة والنعمة ، وهى فكرة شرحها بالتفصيل فى كتابه « الهروب من الفكر » لذلك حاولت أن اشرح كل فكرة من هذا النوع فى الهامش بعد الاطلاع على الكتاب الأصلى ليسهل على القارئ تتبع الموضوع •

وستجد فى الكتاب أن أسلوب المؤلف أقرب الى أسلوب المدرس منه الى أسلوب الكاتب • فهو يشرح الفكرة فى اكثر من فصل وباكثر من طريقة حتىلتظن انه تكرار دون داع ، لكنه يقصد بذلك الشرح والتاكيد والتركيز على الأفكار الهامة ، ولا يجب أن ننسى أن الكتاب فلسفى فى موضوعه لذلك سيرتاح اليه ، ويعجب به ، من سبق أن درس

شيئا عن الفلسفة · أما للقارىء العادى ، فقد حاولت قدر استطاعتى أن أوضح المفاهيم فى الهامش · وأرجو أن أكون قد نجحت فى ذلك · لكن أسلوب الكتاب وحرصى على نقله بأمانة جعل أسلوبه الفلسفى صعبا نوعا ، وعلى القارىء أن يقرأه باعتباره كتابا دراسيا لا رواية تقرأ فى سهولة ·

ولعل أصعب ما صادفنى فى هذا الكتاب أن المؤلف يستخدم كلمات صاغها لنفسه حتى انها لا توجد فى المعاجم · كما انه يشير الى بعض الروايات المعاصرة فى السينما وكأنه يخاطب الشاب الأوربى الذى يرى هذه الروايات ·

ويتحدث مستخدما بعض المصطلحات ليرد على فيلسوف أو آخر وكأننا نعرف كل كلمة كتبها هذا الفيلسوف ·

لكنى لا أريدك أن تيأس أيها القارىء بل تقدم واقرأ قراءة جادة ولا بد أنك ستصل الى هدفك ·

وأرجو من الله أن يستخدم هـــذا الكتاب ليكون بركة لشـبابنا ليكونوا مستعدين لمجاوبة من يسألهم عن سبب الرجاء المبـــارك الذى فيهم ·

المعرب

الفصل الأول

الحاجة الى البحث فيما وراء الطبيعة

يبحث هذا الكتاب فى موضوع وجود الله غير الصامت فى ميادين ثلاثة : ــ الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة)★ والأخلاق (morals) والمعرفة (Epistomology)

وهذه الميادين الثلاثة هى الميادين التقليدية للأبحاث الفلسفية • فالميتافيزيقا تبحث فى الوجود أو مشكلة الوجود • وهذا يتضمن وجود الانسان • لكن وجود الانسان ليس هو المشكلة العظمى لكن المشكلة الأعظم هى وجود أى شيء على الاطلاق • ولعل افضل من عبر عن ذلك هو جان بول سارتر عنـــدما قال « ان المشكلة الفلسفية الأساسية هى وجـــود شيء وليس عدم وجـــود شيء » • ولا يوجـــد بحث يستحق أن نطلق عليه كلمة فلسفة يهمل الاجابة على حقيقة وجود الأشياء • وان هذه الأشياء موجودة بصورة مركبة كما نراها الآن •

هذا الموضوع (الوجود) هو موضوع الميتافيزيقا الذى نبحث فيـــه •

أما الموضوع الثانى فى الفـكر الفلسفى فهو الانسان وثنائيـــة الانسان •

فالانسان شخص لكنه محـــدود • ويحسن أن نذكر قولا آخـر لسارتر « لا يوجد أى معنى لنقطة محددة ما لم توجد لها نقطة مرجعية

★ ظهر اسم ما وراء الطبيعة بطريقة عرضية بحتة ، فان ناشرى كتب ارسطو كانوا قد وضعوا بحوثه ودراساته الفلسفية العامة بعـد دراساته فى العلوم الطبيعية • ولما كانت هذه الأخيرة تعرف باســم الفيزيقا اطلقوا على الأخرى اسم ما بعد الطبيعة (ميتافيزيقا) أى الذى يلى الطبيعة فى الترتيب وهو ذلك الفـــرع من الفلسفة الذى يحاول الوصول الى نظرية عامة فى طبيعة العالم •

(المعرب)

(reference) تقارن بها » ولا شك أن كل مسيحى يوافق سارتر على قوله هذا ·

الانسان محدود ، فهو ليس كلا متكاملا بالنسبة لنفسه · لكن الانسان يختلف عن كل ما هو غير انسانى · فالانسان شخص بالمقارنة بالموجودات الأخرى التى لا نسميها اشخاصا · وأنا أستخدم لفظا معينا للدلالة على هذه الحقيقة ، فأقول ان الانسان يمتاز بانسانيته Manishness ان المدرسة السلوكية★ Behaviorism ومذهب الحتمية★ Determinism قد يدعيان أن الانسان ليس شخصية · ولكن المشكلة الأولى أن هذا الفرض ـ يناقض ما نراه من انجازات الانسان خلال أربعة آلاف سنة ان قبلنا هذا الرقم بحسب أحدث الدراسات · اما المشكلة الثانية فهى اننا نجد ان اى انسان يعتنق السلوكية أو الحتمية لا يستطيع أن يستمر على اعتقاده هــذا بأن الانســان مجرد آلة كما صــوره فرنسيس كريك Francis Crick الذى يختزل الانســان الى خواص طبيعيــة وكيميائية فقط · لكن من الطريف أن كريك يظهر بوضوح أنه غير ملتزم بفكرته التى يؤمن بها · ففى أحد كتبه « الجزيئات والانسان » ، يتحدث عن الطبيعة مشيرا اليها بلفظة « هى » وفى كتاب آخــر يتحدث عن الطبيعة بادئا بحرف كبير Nature وكذلك الحال مع سكينر B. F. Skinner مؤلف كتاب « خلف الحرية والكرامة » اذ يظهر نفس الاتجاه ·

هاتان هما الصعوبتان اللتان تعترضان أى معتنق لمذهب السلوكية أو مذهب الحتمية · (وهما المذهبان اللذان يناديان بأنه لا يوجد فرق جوهرى بين الانسان وغيره من الموجودات) فالذى يعتنق هــذه الأفكار لا بد أن ينكر ما يلاحظه الانسان على نفسه منذ أن كان انسانا بدائيا يعيش فى الكهوف وحتى يومنا هذا · كما انه لا يمكن للتركيبات

★ المدرسة السلوكية : تدرس سلوك الانسان باعتباره مجــرد ردود افعال لمؤثرات خارجية · وبهذا يصبح الانسان مجموعة معقدة من ردود الأفعال كالآلة المعقدة ·

★ الحتمية مذهب ينادى بان افعال الانسان لا سلطة للانسان عليها · وهو مذهب شبيه بمذهب الجبرية أو القضاء والقدر ·
(المعرب)

الكيميائية أو لأى نوع من الحتمية أن تجعل الانسـان يعيش كغيره من المخلوقات ٠

أما الموضوع الثانى (أى ثنائية★ الانسان) فاننا نلاحظ سـمو الانسان ٠ وقد لا تحب كلمة سمو ، لكنك اذا اخترت لفظا آخر فان هذا لا ينفى أنه يوجد فى الانسان شىء عظيم سام ولا بد أن أذكر بهذه المناسبة الخطأ الفاحش الذى وقع فيه المبشرون : اذ خلطوا بين خطية الانسان، ووقوعه تحت دينونة الله ، مع فكرة ان الانسان لا شىء ، وهو مجرد صفر ٠ لكن الكتاب المقدس لم يقل ذلك ٠ فالانسان يتمتع بشىء عظيم ولا شك اننا نضيع أعظم فرصة لنا للكرازة ان اهملنا التنبير على ان الكتاب المقدس يرينا سر عظمة الانسان وسموه ٠

ومن هنا تجىء الثنائية الثانية (كانت الثنائية الأولى أن الانسان شخص لكنه محدود) فالانسان ليس ساميا فحسب لكنه قاس أيضا ٠ ويمكن أن نترجم هذا التناقض بلغة العصر فنقول انه اغتراب الانسان عن نفسه وعن كل انسان آخـر فى ميدان الأخـلاق ٠ اذا فنحن أمام ميدانين من ميادين الفكر الفلسفى : الأول ميتافيزيقى ، عن الوجود ٠ والآخر اخلاقى ٠ اما الميدان الثالث فى هذه الدراسة فهو ميدان المعرفة أو مشكلة المعرفة ٠

ولنلاحظ ملاحظتين هامتين :

أولا : ان الفلسفة والدين يناقشان نفس المشاكل الأساسية ٠ لقد اتجه المسيحيون ـ لا سيما المبشرين منهم ـ الى نسيان هذه الحقيقة ٠ فالفلسفة والدين يبحثان نفس الموضوعات ، لكن لكل منهمـا اجاباته المختلفة وأساليبه المختلفة ٠ فالفلسـفة والدين (وأقصـد به المعنى الواسع أو العام للدين بما فى ذلك المسيحية) يبحثان فى الوجود : أى ما هو موجود ٠ والانسان وما فيه من ثنائية (أى الأخـلاق) وفى الطريقة التى يصل بها الانسان الى المعرفة ٠ هذه الافـكار تعالجها الفلسفة والدين ٠ سواء أكان ما نكرز به أو ما نؤمن به من آراء مسيحية

★ اننا نستخدم كلمة ثنائية لترجمة كلمة Dilema وهى تعنى حلين كلاهما مر وعلى الواحد أن يختار بينهما ٠

محافظة ٠

ثانيا : للفلسفة معنيان يجب ألا يختلطا حتى لا تختلط الأمور أمامنا ٠ المعنى الأول لكلمة فلسفة انها فكر أكاديمى أو مادة دراسية على مستوى فكرى عال-لا يهتم بها الا قلة قليلة من الناس ٠ وبهذا المعنى فهناك قلة نطلق عليهم لفظ فلاسفة ٠

أما المعنى الثانى ـ الذى لا يجب اهماله ان كنا نريد أن نعرف مشكلة الكرازة بالانجيل فى القرن العشرين ـ فهو ان الفلسفة هى نظرة الانسان للحياة ٠ وبهذا المعنى يصبح كل الناس فلاسفة ٠ لأن لكل انسان نظرته الخاصة للحياة ٠ كل انسان فيلسوف ، سواء أكان عاملا يدويا بسيطا أو أستاذا للفلسفة فى الجامعة ٠

مال المسيحيون الى احتقار مفهوم الفلسفة وكان هذا سببا فى ضعف الكرازة ٠ فالمسيحيون المحافظون يقولون « اننا على حق اذ نحتقر الفلسفة بل ونحتقر كل ما هو عقلى » وكليات اللاهوت المسيحية نادرا ما تربط بين اللاهوت والفلسفة (خصوصا الفلسفة المعاصرة) لذلك يتخرج الخريجون وهم لا يعرفون الصلة بين الفلسفة واللاهوت ٠ بل ان المأساة التى لاحظتها أن الخريجين ـ ليس فقط لا يعرفون الاجابات على الأسئلة بل ـ لا يعرفون الأسئلة نفسها ٠

ان الفلسفة عامة شاملة فى نظرتها ٠ ولا يمكن أن يعيش الانسان بدون نظرة معينة للحياة ٠ لذلك فكل انسان فيلسوف ٠

وان كانت امكانيات الاجابة فى ميادين الفلسفة الثلاثة التى ذكرناها محدودة ، لكن توجد مناقشات واسعة حول الاجابات الأساسية ٠ ومما يساعدنا سواء كنا ندرس الفلسفة فى الجامعة ونصارع فى مشاكلها صراعا رهيبا ، أو كنا نجهز أنفسنا لنكون كارزين بالكلمة الى أناس لهم نظرتهم الخاصة للحياة ـ أن نتحقق أنه بالرغم من وجود تفصيلات واسعة ، فان الاجابات محدودة العدد جدا ٠

وهذه نماذج قليلة من الاجابات على هذه الأسئلة :

(١) النموذج الأول هو الذى يقول انه لا توجد اجابة منطقية معقولة ٠ وهذه ظاهرة منتشرة فى جيلنا ، حتى ان هذه الأسئلة نضعها

تحت عنوان « الأسئلة الميئوس من الاجابة عليها » • وأنا لا أدعى أن هذا النموذج الفكرى لم يكن موجودا فى الأجيال السابقة لكنى أقول أنه اكثر انتشارا فى جيلنا الحالى • وهذا لا ينطبق فقط على الفلاسفة ، بل انه شعار معظم الناس فى الشوراع والمقاهى كما فى الجامعات أيضا • وعلى ذلك فالاجابة هى أنه لا توجد اجابة منطقية • فكل شىء غامض وغير منطقى وهذا الفكر نراه بوضوح ودقة فى عالم الفكر الوجودى وفى مسرح اللامعقول • وهذه هى فلسفة أو نظرة عدد كبير من الناس هذه الأيام فهى جزء لا يتجزأ من فكر الانسان فى عصرنا الحاضر • لا توجد اجابة ، فكل شىء غير منطقى ولا معقول •

ومن الصعب أن تناقش انسانا يعتنق هـذا الرأى فيرى أن كل كل شىء لا معنى له ، وانه لا توجد اجابات ، وانه لا ارتباط بين السبب والنتيجة • لكن من حسن الحظ أنك لا تجد انسانا يعتنق هذا المبدأ على طول الخط وباصرار • فمن الممكن أن يعتنق هذه الأفكار فكريا فقط أما من الناحية التطبيقية فلا يمكن أن تكون كل الأشياء فى حالة من الفوضى • والسبب الأول لعدم امكان اعتناق هذا المبدأ عمليا هو ان العالم المحيط بنا منظم تنظيما متقنا ، لا فوضى • فلو كان كل شىء فوضى ولا معقول كما يدعون لانتهت الحياة كلها • فلا يمكن أن نحيا فى هذا العالم المحيط بنا الا اذا كان له شـكل خاص ونظام خاص • ولا بد للانسان أن يخضع لهذا النظام حتى يستطيع أن يعيش فى هذا العالم •

فى رواية لجودارد Godard نرى النـاس يخرجون من الشباك بدلا من أن يخرجوا كالمعتاد من الباب • لكنهم لا يخرجون من الجدار • وكأن جودارد يقول : بالرغم من أنه لا يملك الاجابة ، لكن هذا لا يعنى أنه يستطيع المروق من هذا الجدار الصلب • وهو يعبر بهذا عن المشكلة • فهناك تناقض بين فكرة أن العالم يعيش فى فوضى تامة • وبين الحقيقة ان العالم الخارجى له شكل ونظام •

ويحاول الناس أن يدخلوا شيئا ولو بسيطا من النظام ، لكن ما أن يدخل النظام حتى تنهار أفكار هذا النـوع من الناس الذين ينادون باللانظام •

وكثيرون من المفكرين هذه الايام ، يؤمنون بأن العالم يعيش فى فوضى تامة • لكن هؤلاء المفكرين لا يلتزمون بفكرتهم • فما أن تناقش

أحدهم مناقصة منطقية وتصل به الى أسئلة لا يستطيع الاجابة عليها حتى يترك المنطق ويقول لك ان كل شيء لا معقـول ولا توجد اجابات محددة · لذلك عندما نناقش مثل هذا الانسان علينا أن نبين له ـ عندما يلجأ الى هذا الفكر ـ ان كل مناقشاته مشكوك فيها ·

اذا من الناحية النظرية نجد هذا الفكر منتشرا ·

أما من الناحية العملية فاننا نجده يتعارض مع عالمنـا المنظم · وما أن يتبع انسان هذا الفكر حتى نجد أن وسيلة الاتصال بيننا قـد انقطعت · وتتحول المناقشة الى مجرد أصوات لا معنى لها · مثل : « ياه ··· ياه ··· ياه ··· » لقد حاول مسرح اللامعقول أن يوضح ذلك لكنه فشل · ولو تتبعت مسرحية فى مسرح اللامعقول لوجدتها تريد أن تقول لك ان الاتصال بينك وبين الناس غير موجود · وتتكرر هـذه الجملة أمامك انه لا وسيلة للاتصال أو التفاهم ·

نخلص من هذا ان الاجابة التى يوردها هذا النوع من النـاس بأن كل شيء فوضى هى هروب من الاجابة ·

(٢) النموذج الثانى يقول بانه توجد اجابة منطقية معقولة يمكن للفرد أن يعيها ثم ينقلها للآخرين · وفى هذا الفصل سندرس الاجابات الممكنة فى مجال الميتافيزيقا ، ثم تناقش فى الفصول التالية مشـكلة ثنائية الانسان فى مجال الأخلاق لذلك فنحن نضع أمامنا الآن هـذه الاجابات الممكنة فى مجال الميتافيزيقا · وقد سبق أن ذكرت انه رغـم عدم وجود اجابات عديدة الا أنه توجد تفاصيل كثيرة · ونستغرب اذا علمنا أنه لا يوجد سوى ثلاث اجابات منطقية فقط ·

ولا ننسى اننا ندرس الوجود أو حقيقة ان هنـاك شيء موجود · ولنتذكر قول سارتر « ان المشـكلة الفلسفية الأساسية هى وجود شيء وليس عدم وجود شيء » ·

والاجابة الأولى ان كل ما هو موجود نشأ عن لا شيء · وبمعنى آخر فانت تبدأ من اللاشيء وللأخذ بهذه الفكرة يجب أن يكون هنـاك اللاشيء المطلق أو ما سميته لاشيء من اللاشيء · فلايمكن أنيكون « لاشيء من الأشياء » ولا « شيء من شيء » بل لا بد أن يكون لاشيء من لا شيء · فان قصد أحد أن يقبل هذه الاجابة فيجب ألا يكون شيء بل لا شيء من

لا شيء أى أنه لا يوجد شيء سواء أكان كتلة أو حركة أو طاقة ولا ذات بالمرة ٠

وسأشرح فكرة لا شيء من لا شيء كما يلى :

لنفترض وجود لوحة سوداء لم تستخدم من قبل ثم رسمنا عليها دائرة وفى هذه الدائرة كل شيء مما كان ـ ولم يكن فى الدائرة شيء ٠ ثم مسحنا هذه الدائرة ٠ هذا تفسير لاشيء من لا شيء ٠

لا تسمح لأى شخص يدعى أنه يبدأ من اللاشيء ثم يبدأ من شيء مهما كان هذا الشيء : طاقة ـ كتلة ـ حركة ـ أو شخص ٠ فأى واحدة من هذه شيء ٠ والشيء لا يمكن أن يكون لا شيء ٠ والحقيقة انى لم استمع أبدا لمناقشة مستمرة من هذا النوع ٠ لأنك لا يمكن أن تتصور ان كل ما هو موجود الآن جاء من لا شيء ٠ لكن من الوجهة النظرية هذه هى الاجابة الأولى ٠

والاجابة الثانية فى مجال الوجود ان كل ما هو موجود الآن له أصل غير شخصى مثل : الكتلة ـ الطاقة ـ أو الحركة ٠ وهى كلهـا ليست أشخاصا بالطبع ، بل انها متساوية فى انعدام الذاتية ٠ لذلك فالبدء بأى منها لا يؤدى الى فرق معين من الناحية الفلسفية كم من أناس عصريين يعتقدون أنهم أكثر تقدما عندما يقولون بأن أصل الوجود هو الطاقة وليست الكتلة كما قال القدماء ٠ لقد نادى بهذا سلفـادور دالى Salvador Dali عندما ترك السيريالية★ الى التأمل الباطنى الغامض ٠ لكن مثل هؤلاء الناس لا يملكون جوابا أفضل كما يدعون : فالأصل لا شخص أيضا ٠فالطاقة لا شخصية ٠ حالها حال الكتلة أو الحركة ٠ واذ تتقبل البداية اللاشخصية فانك توجه بنوع من الاختزال٠ ومعنى الاختزال ان كل ما هو موجود الآن ـ من النجوم الى الانسـان ـ يمكن فهمه بارجاعه الى أصوله الأولى الى العوامل اللاشخصية ٠

والمشكلة العظمى التى تواجهنا اذ نبدأ باللاشخصى هى كيف نجد أى معنى للجزئيات ٠ فالجزئية عامل واحد أو شيء واحـــد أو هى

★ السيريالية مذهب فرنسى يعنى ما هو فوق الواقع أو غيـــر المألوف ويظهر فى الرسوم غير المترابطة ٠

(المعرب)

الوحدات المنفصلة المكونة للكل • فنقطة الماء جزئية والانسان جزئي أيضا •

فاذا بدأنا باللاشخصي فكيف نجد لأى جزئية موجودة (بما في ذلك الانسان أى معنى ؟ لم يستطع أى من فلاسفة الشرق والغرب — وفى كل تاريخ الفلسفة — أن يرد على تساؤلنا هذا •

فاذا بدأنا باللاشخصي فكل شيء — بما فى ذلك الانسان — يجب أن يفهم على انه لاشخصى مضافا اليه الزمن والصدفة • لا تدع أحداً يشتت فكرك فى هذه النقطة • فلا وجود لأى عامل آخر • فاذا بدأنا بما هو لا شخصى فلا يمكن أن نصل الى نوع من الغائية أى الهدف أو الغاية المقصودة •

لم يستطع احد أن يشرح لنا كيف تضافرت الصدفة مع الزمن مع ما هو لا شخصى لينتج لنا هذا الكون المعقد (ولنترك الان جانبا الشخصية الانسانية) •

ونحن نسمى البداية باللاشخص بوحدة الوجود Pantheism ★ ان معظم الأفكار اللاهوتية المتحررة تؤمن بهذه الفكرة أيضا • وتسمية البداية باللاشخصى بكلمة Pantheism فيها خداع لفظى لأن استخدام اللفظ theism يتضمن علاقة بشخص بينما التعريف الأصلى يتضمن اللاشخصى • وفى مناقشاتى لا أسمح لأى شخص أن يستخدم هذه الكلمة دون أن يفكر فى مدلولها ، لكنى أحاول اثناء المناقشة أن أوضح أن المقصود ليس وحدة الوجود بمعناها المضلل بل وحدة كل شيء كما أسميها Panevery thingism • ففى الديانات القديمة كالهندوسية والبوذية كما فى التأمل الباطنى الحديث تجد أن لاهوت وحدة الوجود فيها جميعا لا يعنى حقيقة وحدة الوجود ، بل هو خداع لفظى •

ولكن مهما كانت الصورة التى تتخذها فكرة وحدة الوجود بما فى ذلك صورة العلم الحديث الذى يختزل كل شيء الى الطاقة فاننا نواجه نفس المشكلة دائما : النهاية اللاشخصية •

★ Pantheism المذهب القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد — وان الكون المادى والانسان ليسا الا مظاهر لهذه القوة •

توجد مشكلتان : الحاجة الى الوحدة ، والحاجة الى التعـــدد diversity فوحدة كل شيء التي تكلمنا عنها تعطي الاجابة على الحاجة الى الوحدة لكنها لا تجيب على الحاجة الى التعــــدد • فاذا بدانا باللاشخصي فلا معنى أو دلالة للتعدد • فيمكننا أن نفكر في الهندوسية وفى نظريتها فى وحدة الوجود • فهى تقول بأن أصل كل شيء هو الـ OM وفى الواقع كان يجب أن تكون الـ OM هى نهاية كل شيء • وكأنهـــا موسيقى على نغمة واحدة بلا تنوع فلا سبب للتنوع هنا • وهكذا فان استطاعت وحدة كل شيء أن تعطى اجابة للشكل فانها لا يمكن أن تفسر الحرية • والدورات تظهر كما لو كانت موجات تعلو من البحر لكن كل هذا لا يقدم لنا حلا نهائيا لأى من هذه المشكلات • فالأخلاق فى ضوء وحدة كل شيء لا معنى لها كأخلاق لأن كل شيء فى هذه الوحدة متساو• واللاهوت الحديث يتجه الى أخلاقيات المواقف Situation Ethics لأنه لا يوجد شيء اسمه أخلاق فى هذه الدورة • ولو ان كلمة أخلاق تستخدم كمجرد كلمة •

هنا مأساة الاجابة الثانية على مشكلة الوجـــود • وهى أكثر الاجابات انتشارا هذه الأيام • فالعلوم الطبيعية تتمسك بها وتنادى بأن كل شيء بدأ بالطاقة والطلبة فى الجامعات يتمسكون بنـــوع من أنواع وحدة كل شيء • ومعظم كتب اللاهوت المتحرر تنادى بوحدة الوجود • لكن البدء باللاشخصي ــ كما فى حالة وحدة الوجود ــ لا يمكن أن يجيب اجابات حقيقية عن سبب الوجود المعقد أو الشخصي أو على وجـــود شخصية الانسان أو انسانية الانسان •

(٣) أما الاجابة الرئيسية الثالثة فهى تبدأ بشخص وبذلك نصل الى نهاية كل الاجابات الممكنة فى تعليل الوجود • وقد تظهر هـــذه الاجابات بسيطة لكنها حقيقية • وهذا لا يعنى أن هذه الاجابات الثلاث لا تحتمل المناقشة أو التفرع أو وجود مدارس مختلفة فى تفسيرها ، لكن هذه الاجابات تمثل المدارس الرئيسية الممكنـة • قال أحدهم انك كلما تعمقت فى السؤال الرئيسي فان احتمالات الاجابة ستكون بسيطة وواضحة • لا توجد اجابات أساسية كثيرة لأى سؤال هام فى الحياة•

والآن دعونا نتأمل فيما نعنيه بالبداية الشخصية للوجود • اننا نقصد أن شخصا بدأ كل شيء آخر • (وهذا عكس البداية اللاشخصية)•

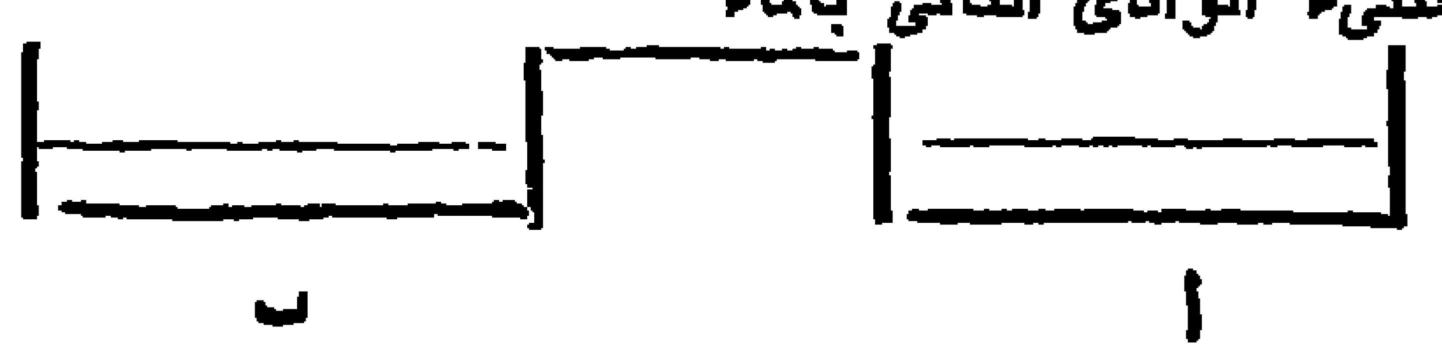
وفى هذه الحالة يكون لشخصية الانسان معنى . وهذه ليست فكرة مجردة .

تعبت من كثرة الاجابة على السؤال الذى يوجه لى دائما : لماذا لا تقدم الانجيل البسيط ؟ وللاجابة على ذلك أقول : ينبغى أن نقدم الانجيل البسيط بحيث يكون بسيطا للسامع الذى تتحدث اليه ، والا فلن يكون بسيطا . ومشكلة الانسان فى عصرنا الحاضر بسيطة ، فهو يتساءل لماذا وجد الانسان بلا معنى ؟ انه يحس أنه ضائع ، بل انه صفر . وهذه نكبة جيلنا ولب مشكلة الانسان المعاصر .

أما اذا بدأنا بالبداية الشخصية وقلنا ان هذه البداية هى أصل الوجود عندئذ يصبح للشخص معنى كما يمكن تعليل طموح الانسان لأن طموح الانسان متعلق تماما بأصله .

والمسيحى عنده الجواب على هذه النقطة . بل انه جواب هائل ! اذا لماذا نستمر فى ترديد الحقائق العظيمة بكل الطرق التى لا يفهمها أحد ؟ لماذا نكتفى بأن نحدث أنفسنا بينما يهلك الناس من حولنا ونحن ندعى أننا نحبهم ؟ ان نقمة الانسان اليوم انه لا يجد معنى للانسان . أما لو بدأنا بالبداية الشخصية فسنصل الى حالة مختلفة تماما . سنجد الحقيقة أن الشخصية لها معنى لأنها ليست فى حالة اغتراب عن الموجودات التى وجدت والموجودة والتى ستوجد . هذه هى اجابتنا . وبهذه الاجابة نجد حلا ليس فقط لمشكلة الوجود ، أو لمشكلة الوجود المركب ، بل لبيان سبب اختلاف الانسان وتميزه بشخصية تميزه عن سائر المخلوقات اللاانسانية .

وسنفسر ذلك بتشبيه من جبال الألب فى سويسرا حيث تجد واديين أحدهما ممتلىء بالماء والآخر مجاور له لكنه ليس فيه ماء . ومن الغريب انه فى بعض الأحيان تفيض بعض العيون المائية فى الجبل وعندئذ يمتلىء الوادى الثانى بالماء .



وما دام مستوى الماء فى (ب) مساو لمستواه فى (أ) أو أقل منه فان معظم السائحين يظنون أن الوادى (ب) يستمد ماءه من (أ) .

لكن اذا ارتفع المستوى فى الوادى(ب) عن مستوى الوادى (أ) بحوالى ثلاثين قدما ، فلا يمكن أن يفكر أحد فى هذه الحالة بأنه يستمد ماءه من (أ) . فاذا اعتبرنا أن بداية الحياة ترجع لشخص عندئذ نفهم أن طموح الانسان للوصول الى الشخصية له سبب معقول . أما اذا بدأنا ، بما هو أقل من الشخصية ، فاننا نختزل الشخصية الى ما هو لا شخصى والفكر العلمى المعاصر يفعل هذا عندما يختزل الأشياء ، وبذلك تتحول كلمة « شخصية » الى لا شخص زائدا بعض التعقيدات والتركيبات •

وفى الفكر العلمى الطبيعى Naturalistic فى كل العالم سواء أكان فى ميدان علم الاجتماع ، أو علم النفس ، أو علم الأحياء ، نجد أن الانسان يختزل الى شيء لا شخصى مضافا اليه بعض التعقيدات دون أى فرق جوهرى بين الشخص واللاشخص •

أما اذا اعتبرنا أن بداية الحياة شخصية ، فعلينا أن نختار بين فكرتين : هل هو اله أم آلهة ؟ والصعوبة فى اختيار الحل الثانى (الآلهة) بدلا من الله ، ان الآلهة المحدودة ليست كبيرة بالقدر الكافى • فلكى نجيب بأن بداية الحياة بداية شخصية نحتاج الى شيئين : اله شخصى لا محدود ثم الى وحدة وتعدد فى هذا الاله •

دعونا نفكر فى الحاجة الأولى : اله شخصى لا محدود • هذا هو الاله الوحيد الكافى • لقد أدرك أفلاطون أنه يجب أن يكون هناك مطلقات Absolutes والا لما أصبح لأى شيء معنى • لكن المشكلة التى واجهها أفلاطون ان آلهته لم تكن كبيرة كبرا كافيا حتى تسد كل الاحتياجات • ومع أنه توصل الى الاحتياج لكن هذا الاحتياج ذهب أدراج الرياح لأن آلهته لم تكن كبيرة كبرا كافيا حتى تصبح النقطة المرجعية أو محطا لمطلقاته ومثله • ففى الأدب اليونانى نجد أن القدر يتحكم أحيانا فى الآلهة ، وأحيانا أخرى تتحكم الآلهة فى القدر • لماذا هذا الارتباك ؟ لأن كل شيء فى تفكيرهم يتحطم عند هذه الفكرة : ان آلهتهم ليست كبيرة كبرا كافيا • لذلك نحن فى حاجة الى اله شخصى غير محدود •

الحاجة الثانية : اله شخصى واحد متعدد .

لا مجرد فكرة أو مفهوم مجرد عن الوحدة والتعدد لأننا ـ كما

رأينا ـ نحتاج الى اله شخصى • لذلك نحن فى حاجة الى شخص واحد متعدد • وبدون ذلك لا نجد اجابة شافية •

ان ما نتحدث عنه الان هو الحاجة الفلسفية فى دائرة الوجود• عن حقيقة وجود الله • انه موجود •

ولا توجد اجابة فلسفية أخرى مقنعة غير الحقيقة التى سقناها• فتش كيفما شئت فى فلسفة الوجود أو فى أى فلسفة أخرى • فلن تجد اجابة أخرى غير هذه الاجابة التى حددنا معالمها •

فلا توجد الا فلسفة (بل ديانة) واحدة يمكن أن تسد هذا الفراغ فى الفكر العالمى سواء فى الشرق او الغرب ، قديما أو حديثا • لا يوجد الا اله واحد يمكن أن يسد هذا الاحتياج هذا هو اله المسيحية • فهو ليس مجرد مفهوم لكنه اله موجود • ولا حل سواه • ويجب أن نخجل نحن المسيحيين لأننا اتخذنا موقفا دفاعيا مدة طويلة بينما الموضوع لا يحتاج الى دفاع حيث لا يوجد حل آخر •

ويجب ان نلاحظ ان كلمة « اله » من اكثر الكلمات غموضا • فاذا نظرنا اليه كمجرد كلمة لغوية مكونة من ثلاثة حروف : ا ـ ل ـ ه • فالكلمة لا تعنى شيئا الا اذا اشـتملت على مضمون • وهى كلمة غامضة لأنه أى كلمة أخرى تحمل فى ثناياها معناها • فكلمة اله اذا لا ترد على المشكلة الفلسفية بخصوص الوجود ما لم نعطيها مضمونا•

اما المضمون اليهودى المسيحى لكلمة « الله » كما هو معلن فى العهدين القديم والجديد فيعطى الاجابة لمشكلة الوجود : وجود الكون المعقد ـ ووجود الانسان كانسان •

ما هو هذا المضمون ؟ انه اله شخصى غير محدود • اله واحد فى تعدد فى نظام الثالوث •

يسألنى البعض من حين لآخر : كيف أومن بالثالوث ؟ وأنا أجيب اجابة واحدة • ان لم أومن بالثالوث فأنا واحد من اللاأدريين • لأنه بدون الثالوث ـ هذا النظام السامى للوحدة والتعدد ـ فلن تكون هناك اجابات •

دعونا نعود مرة أخرى الى الشخص اللامحدود • فسنجد أن لا محدودية الله فى جانب والانسان والحيوان والنبات والآلة فى جانب آخر وبينهم هوة عظيمة أو بون شاسع • فالله يقف وحده لا محدود مطلق بخلاف أى شىء آخر لأنه وحده اللامحدود • كل شىء وجد وخلق كما أن كل شىء غير مستقل لكن الله وحده هو المطلق المستقل استقلالا كليا • فباعتبار ان الله غير محدود نجد أن الانسان منفصل انفصال الذرة أو الآلة عن الكون •

اما اذا تأملنا فى الله كشخص فسنجد الفرق العظيم بين الانسان وغيره من المخلوقات (كالحيوان والنبات والآلة) • لماذا ؟ لأن الانسان مخلوق على صورة الله • هذه ليست مجرد عقيدة أو فكرة نرددها دائما كما يقول مكلوهان Mcluhan لكنها سداة المشكلة ولحمتها • خلق الانسان على صورة الله لذلك فهو شخصية ومن هذه الناحية نجد أن الهوة ليست بين الله والانسان بل بين الانسان وسائر الاشياء • اما باعتبار اللامحدودية فنجد ان الانسان منفصل تماما عن الله انفصال الذرة عن الكون •

وهذا رأينا الذى يوضح أن الانسان شخص لكنه محدود • وليس هذا افضل جواب لمشكلة الوجود بل ان هذا هو الجواب الوحيد •

وهذا مايجعلنا نتمسك بمسيحيتنا تمسكا منطقيا متكاملا • فالحل الوحيد ان الله الشخصية اللامحدودة موجود فعلا •

علينا الآن أن نناقش الجزء الثانى باكثر استفاضة ونعنى به شخصية الاله الواحد المتعدد فى نظام الثالوث • نادى اينشتين بأن العالم كله يمكن ارجاعه الى الكهرومغنطيسية والجاذبية •

وقرب نهاية حياته كان يبحث عن تآلف الجاذبية والكهرومغنطيسية • لكنه لم يتوصل الى تلك القوة الخارجة عنهما والتى تربطهما معا • لكن ماذا كان يحدث لو اكتشف هذه القوة ؟ لقد كانت تمثل لنا معنى وحدةفى تعدد فىعالم الماديات•لكن هذالنيحسم الموضوع لأنه لا يمس الشخصية من قريب أو بعيد • فلو توصل الى اكتشافه هذا لما أمكن تفسير الحاجة الى التعدد فى الوحدة الشخصية

للمقارنة ، دعونا نفكر فى قانون الايمـــان النيقوى★ • ثلاثة أقانيم اله واحد • وكم نسر أنهم اختاروا كلمة اقنوم وهى تعنى شخص• وسواء عرفنا معنى هذه الكلمة او لم ندركها فاننا نجد انها قد فرضت نفسها على عصرنا وما فيه من مناقشات • ثلاث شخصيات حقيقيـة موجودة ، فى محبة متبادلة بينها ، وفى اتصال دائم • هذه الشخصيات موجودة قبل أى شىء آخر •

اذا لم يكن الله هكذا ، لتصورنا أن الله فى حاجة أن يخلق شيئا أو شخصا ليحبه ويتصل به • وفى هذه الحالة يصبح الله فى حاجة الى الكون كما أن الكون فى حاجة الى الله • لكن الله لم يكن فى حاجة أن يخلق شيئا كما أن الله ليس فى حاجة الى الكـــون كما يحتاجه الكون • لماذا ؟ لأنه يوجد ثالوث حقيقى كامل • فالأقانيم الالهية كانت تحب بعضها بعضا وفى اتصال دائم قبل خلق العالم •

وليس هذا مجرد حل للمشكلة الفلسفية المزمنة عن الحاجة الى الوحدة فى تعدد بل ، للوحدة المتعددة للشخصية • ولا يمكن أن توجد الوحدة المتعددة قبل وجود الله لأن الله موجود قبل كـل شىء • وفى ضوء الثالوث نجد أن الوحدة والتعدد هى الله ذاته • ثلاثة اقانيم لكنها تكون الها واحدا • هذا هو الثالوث بكل معناه ولا يمكن أن يكون اقـل من ذلك • ويجب أن نقدر آباءنا الذين عرفوا هذا جيـــدا سنة ٣٢٥ ميلادية • عندما أكدوا على الأقانيم الثلاثة فى الثالوث كما هو واضح فى الكتاب المقدس ولنلاحظ انهم لم يخترعوا هذه العقيدة (الثالوث) للرد على الأسئلة الفلسفية التى كان يثيرها اليونانيون فى ذلك العصر بمهارة كاملة • بل على العكس من ذلك تماما • فمشـــكلة الوحدة والتعدد كانت موجودة لكنهم اكتشفوا أنهم يملكون الجواب الوحيـد وهو الثالوث كما ورد فى الكتاب المقدس • وعلى ذلك فانهم لم يبتدعوا التثليث لسد الحاجة الملحة بل ان الثالوث كان موجودا وكان هو الرد الشافى لكل سؤال • واكتشفوا أن فى الثـــالوث الجواب على كل

★ وهو القانون الذى وضعه مجمع نيقية المسكونى سنة ٣٢٥ للرد على بدعة أريوس •

محاورا اليونانيين عن الوحدة والتعدد وكل محاولاتهم لايجاد تعارف لم يتوصلوا اليها ·

ونكرر ان الثالوث ليس أفضل اجابة بل انه الاجابة الوحيدة · فلم يتمكن شخص أو فلسفة معينة من ايجاد حل لمشكلة الوحدة والتعدد· لذلك عندما نسأل ان كنا نحس بالحرج الفكرى بخصوص موضوع الثالوث فاننا ندير المناقشة الى لغة السائل ومفاهيمه عن الوحدة والتعدد · ففى كل فلسفة نجد هذه المشكلة · ولم تتوصل أى فلسفة منها الى الحل ، أما فى المسيحية فنجد الحل فى الثالوث · والجواب الوحيد للوجود ان الله المثلث الاقانيم موجود ·

وبهذا نكون قد أدركنا شيئين : ان الحل الوحيد لمشكلة الوجود فى الميتافيزيقا هو أن الله ذات لا محدود موجود وان هذا الاله مثلث الأقانيم ولعلنا نتفق الآن على أن الفلسفة والدين يبحثان عن حلول لنفس المشاكل · ولنلاحظ اننا عندما نبحث المفهوم الأساسى للوجود فاننا نجد أن الجواب الوحيد فى المسيحية · وهذه الحقيقة ــ ان فهمتها ــ ستغير حياتك كلية بغض النظر عن اتجاهك مهما كنت محافظا أو مبشرا بالانجيل ·

وبهذه المناسبة أضيف شيئا · فانى الاحظ أن كثيرين من المحافظين الانجيليين يحرصون على أن يتفق الحق مع العقائد أو مع ما يقوله الكتاب المقدس · ومع انى لا أعتقد انه يوجد من يتمسك بالوحى الالهى الكامل كما افعل انا لكنى اقول ليس هذا هو نهاية الحق (كما تقدمه المسيحية وكما يقدمه الكتاب المقدس نفسه) لكن الحق المسيحى حقيقى لكل ما هو موجود · فيمكنك أن تذهب الى أطراف الأرض ولا تخاف كما كان يعتقد الأقدمون عندما ظنوا أنهم اذا ذهبوا الى طرف الأرض فسيسقطون وتبتلعهم التنانين · فيمكنك بمناقشاتك الفكرية أن تصل الى أخر المدى لأن المسيحية ليست مجرد حقيقة تناسب العقيدة ولا مجرد حقيقة تناسب ما قاله الله فى الكتاب المقدس لكنها حقيقة لكل ما هو موجود · ولن تسقط من طرف الأرض انها ليست مجرد نموذج تقريبى لكنها حقيقة لكل ما هو موجود ، وعندما يفهم الكارزون هذه الحقيقة ، وعندما تتطور كرازتنا الى هذه النقطة عندئذ تحدث الثورة

الحقيقية • فتحصل على شيء جميل حى ، شيء قوى فى مواجهة عالم فقير ضائع • هذا هو الحق المسيحى كما أعلنه الله فى كتابه المقدس • لكن لنلاحظ اننا اذا أردنا أن نستخدم هذا الحل فيجب أن يكون عندنا الاجابة الكتابية الكاملة ولا نختزلها لتكون مجـــرد وحدة كل شيء Paneverythingism المنتشرة فى الشرق أو وحدة كل شيء فى اللاهوت المعاصر (سواء البروتستانتى أو الكاثوليكى) ولا نسـمح للاهوت وحدة الوجود أن يتسلل الينا ولا نرضى أن نختزل مسيحيتنا الى الفكر الوجودى • ان كنا نملك هذه الاجابات الهائلة فيجب أن تكون المسيحية هى الاجابة الكتابية • يجب أن نملك الوضع الكتابى الحقيقى حتى يمكننا أن نجيب على المشاكل الفلسفية الأساسية عن الوجود ويجب أن نتسلح بالمضمون الكتابى الكامل عن شخصية الله الذات اللامحدود المثلث الأقانيم •

والآن دعونى أعبر عن هذا بطريقتين :

أولا : بدون الله الذات اللامحدود ، الله الواحد المتعدد فلا توجد اجابة لمشكلة الوجود • ويمكننا أن نقول هذه الحقيقة بطريقة أخرى •

ثانيا : ان الاله الشخص اللامحـدود المثلث الأقانيم قد تكلم • فهو موجود هناك وهو غير صامت • فلا فائدة من اله صامت • وقد تكلم ليعرفنا من هو وانه كائن قبل كل شيء • ولذا فنحن نملك الجواب لمشكلة الوجود • انه اله غير صامت • وهذا ما جعلنا نملك الحل • لأن الاله الشخص غير المحدود المثلث الأقانيم لم يصمت بل عرفنـا بذاته •

ضع مفهومك عن الوحى والاعلان فى ضوء هذه العبارات وستجد انه يتحدى الفكر المعاصر • انه اله غير صامت وهذا ما جعلنا نعرف، لأنه قد تكلم • ماذا أخبرنا ؟ هل حدثنا عن الأشياء الأخـرى فقط ؟ لا بل حدثنـا الحق الحقيقى عن ذاته ـ عن الله الشخص اللامحدود المثلث الأقانيم • اننا نملك الاجابة على مشكلة الوجود • ويمكننا أن نقول هذا بالطريقة التالية :

بشأن الميتافيزيقا وبحث الوجود فان الاعلانات العامة والخـاصة

تحدثنا بصوت واحد • ومهما غيرنا فى طريقة ذكر هذه الحقيقة فاننا نعبر عن نفس الحقيقة من زوايا مختلفة اختلافا طفيفا •

وفى الختام ، فان الانسان اذا بدأ بنفسه ، يستطيع أن يحدد مشاكل الوجود لكنه لا يستطيع من ذاته أن يجد الحلول للمشكلة • فالحل لمشكلة الوجود ان الله الشخص اللامحدود المثلث الأقانيم موجود • وهذا الاله الشخص اللامحدود المثلث الأقانيم غير صامت •

تذييل :

قد يقول البعض انه يوجد احتمال آخر : نوع من الثنائية • أى وجود متقابلين فى نفس الوقت متساويين وأبديين • مثلا العقل (أو المثل والأفكار) والمادة • أو بالنسبة للأخلاق : الخير والشر • وعلى كل ففى مجال الأخلاق ان تمسكنا بهذا الوضع فلا يوجد سبب نهائى يجعلنا نصف انسانا بأنه خير أو شرير • فاختيار احدى الصفتين يصبح ذاتيا ما لم يوجد شىء خارج عنهما • فان وجد هذا الشىء لا تصبح ثنائية • أما فى مجال الميتافيزيقا فان ما يحيرنا حقا انه لا يوجد من ينتهى فى تفكيره الى الثنائية • فاذا رجعنا الى Yin (١) ويانج Yang نجد بينهما شكلا مظللا هو التاو • Tao

وفى الزرداشتية(٢) نجد شكلا أو شيئا غير محسوس • وببساطة ففى أى صورة من صور الازدواجية نجد أنفسنا أمام نوع من عدم الاتزان أو التوتر ونجد حركة نحو الوحدة • فاما ان الانسان يحاول أن يجد وحدة تربط النقيضين أو أنه فى حالة المفاهيم المتوازية (المثل والمادة) يحاول أن يجد علاقة أو صلة بين الاثنين أو يتركهما يسيران معا فى توافق دون وحدة تحافظ على هذا التوافق • وهكذا نجد فى احدى المحاولات ان حالة التوازى تسير فى اتجاه دائم • اما أن يخضع الواحد للآخر أو أن يصبح احدهما مجرد وهم •

---

(١) مفاهيم الفلسفة الصينية القديمة تعبر عن النور والظلمة ، الصلابة والليونة ، الذكر والأنثى ••• الخ •

(٢) ديانة ايرانية قديمة تتميز بالازدواجية (النور والظلمة) •

فان كان عنصرا الثنائية غير شخصيين فان هذا يقودنا الى نفس المشكلة (فى الوجود والأخلاق) كما فى الشكل النهائى لشىء غير شخص • لذلك فالثنائية بالنسبة لى لا تعتبر حلا جذريا كالحلول الثلاثة التى عالجتها فى هذا الكتاب •

وربما كان من المناسب أن نشير الى أنه فى مجـــالى الوجود والأخلاق نجد أن المسيحية تقدم حلا فريدا كافيا للثنائية الحالية ولو أنها أصلا وحدوية •

ففى الوجود الله روح ، وهذا ينطبق على الله الآب وعلى الروح القدس وكذلك على الابن قبل التجسد وبذا نبدأ بالوحدة • ولكن اذا بدأ الله اللا محدود فى خلق العالم المادى من لاشىء فهنا تبدأ الثنائية• ويجب أن نلاحظ أنه مع أن الله خلق شيئا لم يكن موجودا من قبل ، ومع ذلك فهى ليست بداية من لا شىء لأن الله كان هناك ذاتا لا متناهية لكى يريد •

الفصل الثانى

الحاجة الى البحث فى الأخلاق

ننتقل الان الى المجال الثانى من مجالات الفلسفة وهو الذى يبحث فى موضوع حيرة الانسان ٠

فالانسان أمام مشكلتين : أولاهما أنه شخص مختلف عن كل ما هو لا انســانى لكنه مع ذلك محدود ٠ ولأنه محدود فلا يتمتع بنقطة تكاملية كافية فى ذاته ٠ وكما قال جان بول سارتر « ان وجدت نقطة محدودة ليس لها نقطة مرجعية لا محدودة فهى نقطة غامضة بلا معنى» وبالرغم من ذلك فالانسان مختلف عن كل ما هو لا انسانى لأنه ذات أو شخصية وهو يتمتع بانسانية الانسان التى تميزه عن كل ما هو لا انسانى ٠ هذه هى المشكلة الأولى ٠ فهو مختلف بانسانيته لكنــه محدود ٠ فهو لا يملك فى ذاته نقطة تكاملية ٠

اما المشكلة الثانية فهى سمو الانسان ٠ وقد لا نحب هذه الكلمة لما تحتويه من رومانسية تربطها بالماضى (عصر النبلاء) لكن الانسان عجيب ، فهو رغم سموه ٠ قاس ٠ فالانسان مخلوق سام عجيب وفى وفى نفس الوقت تيميز بقسوة رهيبة عاشت معه فى كل حقب التاريخ ٠

ويمكن أن نعبر عن هذه الحقيقة باسلوب اخر فنقــول ، اغتراب الانسان عن نفسه وعن غيره من الناس فى مجال الأخلاق ٠ وهــذا يأتى بنا الى كلمة « اخلاق » ٠ فقد كنا نتحدث فى الفصــل الأول فى مجال الميتافيزيقا ، اما الآن فاننا نأتى الى مجال الأخلاق ٠

فاذا تركنا الاجابة التى تقول انه لا اجابة فى مجال الفــكر والعقل فان الاجابة الأولى التى تجيب على هذه الحيرة فى الأخــلاق (هى كما ذكرنا فى مجال الميتافيزيقا) البــداية اللاذاتية أو غير

الشخصية فعندما ندرس محدودية الانسان وقسوتة يبدو لنا ان هاتين صفتان مختلفتان لا صفة واحدة . ولقد ظل الانسان يعتقد انهما صفتان مختلفتان . فمحدودية الانسان تعنى صغره . فهو ليس نقطة مرجعية لنفسه . لكنه كان ينظر الى قسوته باعتبارها منفصلة ومتميزة عن محدوديته . لكن يجب أن نلاحظ شيئا ، فان كنا نوافق على البداية اللاشخصية فلا بد أن نصل فى النهاية الى أن محدودية الانسان وقسوته شىء واحد . هذه قاعدة مطلقة مهما كان نوع اللاشخصى الذى نبدأ به سواء كان نوعاً من الفرض العلمى كالطاقة والجزيئات أو كان من اللاهوت العصرى ـ فلا بد أن نصل فى النهاية ان هاتين الصفتين هما صفة واحدة . ولكن اذا بدأنا ببداية لا شخصية فلن تبقى الاخلاق أخلاقا . بل اننا اذا بدأنا ببداية لا شخصية فان الاجابة عن المشكلة الأخلاقية تتحول الى تأكيد انه لا توجد أخلاق ـ مهما كانت الطريقة المعقدة التى نعبر بها عن هذه الأفكار .

فالبداية غير الشخصية تؤدى الى تساوى كل شىء فى مجال الأخلاق . والى تحول الأخلاق الى صورة أخرى من صور الميتافيزيقا فى بحثها عن الوجود وتختفى الأخلاق نهائيا من الفلسفة ولا تبقى غير الميتافيزيقا .

فاذا وقفنا برهة عند هذا الموقف فلا بد أن نتحدث عما هو ضد المجتمع أو ما لا يرضى عنه المجتمع أو حتى ما لا أرضى أنا عنه . لكننا لن نستطيع أن نتكلم عن الصواب والخطأ . فاذا بدأنا باللاشخصى فان اغتراب الانسان الذى يحس به الان يصبح نتيجة للصدفة فقط . ويصبح الانسان باشزا عن خط السير العادى للكون الذى بدأ بداية لا شخصية . فاذا بدأنا بهذه البداية اللاشخصية فلا يمكن أن يكون ما يحسه الانسان من اغتراب أو توتر أخلاقيا واذا تقدمنا فى تفكيرنا على هذا المنوال فسنجد أن الانسان أصبح خارجا عن نظام الكون وأساسه .

فافتراض البداية اللاشخصية يجعلنا نفترض أن الانسان ـ بمحض الصدفة ـ أصبح مخلوقا له طموحه وآماله ودوافعه الأخلاقية التى لا تتحقق بصورة مثالية نهائية فى عالمنا الحاضر . بينما نجد أن هذه الدوافع الأخلاقية ليس لها أى معنى فى الكون الذى نعيش فيه .

وهنا نصل الى الاغتراب عن الكون وحيرة جيلنا المعاصر • وهى الصورة التى عبر عنها جياكومتى Giacometti بأشكاله التى تقف مغتربة عن كل انسان وعن المشاهد الذى ينظر اليها فى المعرض •

ان مشكلة جيلنا المعاصر هى مشكلة الاغتراب عن الكون فى المجال الأخلاقى • فالانسان يشعر بدوافع أخلاقية لكنه يجد أن دوافعه مختلفة تماما عما هو كائن أو متبع فى العالم •

وربما تسأل : لماذا استخدم تعبير « الدوافع الأخلاقية » ؟ وقد اخترت هذا التعبير لأنى لا أريد أن أتحدث عن قاعدة سلوكية معينة لكنى أتكلم عن الانسان الذى يحس أن شيئا ما صحيح أو خطأ • وكل انسان يحس فى داخله بهذا الميل أو الدافع الأخلاقى • ولن تجد انسانا يخلو من هذا الدافع حتى فى التاريخ القديم • فالشابة الصغيرة التى تحترف البغاء لا تخلو من هذا الدافع الأخلاقى الى حد ما • وحتى أصحاب مذهب السلوكية أو مذهب الحتمية فى علم النفس لا تخلو حياتهم من الدافع الأخلاقى مع انهم ينكرون ان الأخلاق ـ كأخلاق ـ موجودة • لذلك فاننا نرى الانسان يعانى من الدافع الأخلاقى الذى يقوده الى الاغتراب عن الكون •

ان بدأت باللاشخصى فلا مكان للأخلاق كأخلاق • ويصبح الكون بلا مقياس يعطى لكلمات مثل الصواب والخطأ معنى نهائيا • فان بدأت باللاشخصى فالكون يصمت أمام مثل هذه الكلمات •

لذلك فمن وجهة نظر المؤمنين بوحدة الوجود Pantheists يصبح أكبر خطأ هو عدم تقبل فكرة اللاشخصية • واذا تأملت فى الشرق حيث انتشرت فكرة وحدة الوجود ووضعت لها قواعد ثابتة (أكثر من الغرب فى لاهوتنا العصرى أو فى حركة الهيبيز) فستجد أيضا أن الخطأ الأعظم أو النهائى فى الانسان (أو الكرما★ النهائية أن

★ تعبير فى الديانة البوذية يعنى لفظيا : الأعمال • وهى العاقبة الأخلاقية الكاملة لأعمال المرء فى طور من أطوار الوجود بوصفها العامل الذى يقرر قدر ذلك المرء فى طور تناسخى تال •

(المعرب)

أريدنا) هو فكرة عدم تقبل الانسان للاشخصية • أو بمعنى آخر عـدم تقبله لنفسه •

وفى الهندوسية التى تؤمن بوحدة كل شيء نجد تطويرا لفكرة عدم وجود فرق مطلق بين القسوة وعدم القسوة • وهذا ما نراه فى شخصية كالى Kali • وفى كل ظهورات الآلهة فى الهندوسية نجد انها تظهر فى صورة أنثى • ويقول البعض ان الهندوسية فيها فكرة الثالوث لوجود ثلاثة وجوه مختلفة فى احدى الصور المحفورة • لكن هذه الوجوه الثلاثة تظهر لأول وهلة لمن لا يفهم فى فن النحت أما المتأمل فى النحت فيجد أنها تحتوى على خمسة وجوه (وهو التعليم الهندوسى) أربعة فى شكل دائرى ، وواحد الى اعلى وهو ينظر الى أعلى حتى ولم تره • فلا وجود للتثليث فى الهندوسية والأهم من ذلك أن هذه الظهورات الخمسة لا تمثل شخصيات بل مجرد تجليات أو ظهورات للاله غير الشخصى • وأحد هذه الظهورات أنثى • لأن الأنثى يجب أن تظهر مثل الذكر • والعجيب أن الكالى (الأنثى) هى المخربة المدمرة دائما • يصورونها ولها زعانف كبيرة وجماجم تحيط برقبتهـــا • لماذا ؟ لأن القسوة عندهم مساوية تماما لعدم القسوة • وهكذا نجـد الفشنو ★ Vishnu الذى يأخذ ثلاثة مظاهر ولكن الى جانبـه نرى الكالى التى تمزق وتخرب وتستطيع أن تقطعك اربا • فالقسوة فى هـــذا النظام متساوية تماما مع عدم القسوة •

لماذا كانت القسوة متمثلة فى أنثى ؟ لا أحد يعرف • لكنى أعتقد أنها صورة ممسوخة من شخصية حواء • فالخرافات دائما ترجع الى فكرة معينة لكنها مشوهة أو ممسوخة •

ومن الواضح انك عندما تمتحن الفكر اللاهوتى العصرى أو فكرة وحدة الوجود فى الشرق فانك تصبح الى الحد الذى لا تستطيع أن تفرق فيه بين الخطأ والصواب •

وفى وحدة كل شيء فى الغرب نجد بعض الناس يعارضون هـذه

★ أحد ظهورات الاله فى الهندوسية •

الحالة للاحتفاظ بالفرق بين القسوة ، وعدم القسوة • وهم يحاولون الا يصلوا الى النقطة التى ينعدم فيها معنى الخطأ والصواب • لكنهم لا ينجحون تماما • فحالهم يشبه من يلقى حجرا من على قمة جبـــل فيصعب ايقافه •

انك اذا بدات باللاشخصى فلن تصل الى المطلق النهائى أو الى فرق واضح بين الخطأ والصواب مهما استخدمت الفــاظا دينية أو مسيحية ولن يبقى بعد ذلك الا كل ما هو نسبى مهما اختلفت الطريقة أو الثقافة • يبقى فقط ما هو اجتماعى أو ثقافى أو احصائى ولا شىء غير ذلك • وتصل الى مواقف اخلاقية نسبية ، لكنك لن تصل الى الأخلاق •

واخيرا يجب أن تفهم أنه فى هذا الاطار لا معنى للصواب والخطأ بتاتا • فالأخلاق كأخلاق تختفى ولا يبقى الا ما وراء الطبيعة •

ونحن نسير بخطىواسعة نحو هذا الاتجاه فىحضارتنا الحديثة• تأمل فيما يقـــوله ماريشـــال مكلوهان Marshall Mcluhan « لقد انتهت الديموقراطية » • لكن ماذا يحل محـــل الديموقراطية أو الأخلاق ؟ يقول «سيأتى الوقت وهو ليس بمستبعد فى عصر الالكترونيات عندما نتمكن من توصيل كل فرد بعقل الكترونى كبير • وهذا العقـــل سيحدد المتوسط فى لحظة ما (متوسط أكثر الافعال شيوعا وقبولا) وعندئذ يصبح هذا المتوسط هو مقياس الصواب والخطأ •

قد تقول ولكن هذا أمر مستبعد • لكنى اقول لك بل ان كينزى★ وضع نفس الفكرة عن الجنس وأسماها الأخلاقيات الاحصائية للجنس•

وهذه هى الطريقة التى تسير عليها السويد الحديثة فى اخلاقيات الجنس • فهذه ليست مجرد نظريات بل لقد وصلنا الى هـــذا الحد فى حضارتنا الغربية لأن الرجل اعتبر نفسه مجـــرد وحدة طاقة لأنه بدأ بداية لا شخصية • اذا لقد وصلنا الى الأخلاقيات الاحصائية ، وفى ظل هذا النظام نجد انفسنا ببساطة بلا اخلاق •

★ عالم امريكى اجرى بحثا كبيرا عن الجنس وكتب كتبا عن هذا البحث أحدثت رجة فى الفكر العالمى فى هذا الموضوع •

(المعرب)

فاذا استخدمنا لغة الدين بدلا من لغـة العالم فقد نتفادى بعض التوتر لكن عندما نتعمق الى ما وراء الكلمات الدينية لا نجـد معنى حقيقيا غير الاختزال الطبيعى السـيكولوجى للأخلاقى الى مجرد ردود فعل أو ردود فعل شرطية • وخلف الكلمات التى تبدو دينية تجد نفس المشكلة التى نجدها خلف الكلمات الدنيوية • فيختفى مفهوم الأخلاق كأخلاق وقد عبر عن ذلك المركيز دى ساد أفضل تعبير عندما قال عن الحتمية الكيميائية « ما هو الصواب ؟ » ولا يمكن لأحد أن يقول خلاف ذلك اذا بدأ ببداية لا شخصية •

دعونا نلخص ما سبق :

اذا بدأنا باللاشخصى فلا معنى ولا تفسير للـكون المعقـــد أو لشخصية الانسان (كما بينا فى الفصل السابق) ولا نقول ان المسيحية عندها جواب أفضـــل بل انك اذا بدأت باللاشخصى فلن تجد جوابا على الاطلاق لمشكلة الوجود •

وفى مجال الأخلاق نجد نفس الشىء • ان بدأت باللاشخصى (مهما عبرت عن هذا اللاشخصى) فلا معنى للأخلاق •

والآن دعونا نتمعن فى الاجابة العكسية ، أى البداية الشخصية • بهذه البداية يمكن أن نفصل بين الميتافيزيقا والأخلاق • وهذا شىء هام ولو أنه يبدو بسيطا فاذا بدأنا بالبداية اللاشخصية فسنجد ان الميتافيزيقا والأخلاق يصلان فى النهاية الى شىء واحد • أما البداية الشـخصية فتفصل بينهما • وبمعنى آخر فان محدودية الانسان تظل منفصلة عن قسوته •

وعلى أى حال فاننا عندما نقول ذلك نواجه مشكلة عويصة • اذا بدأنا بداية شخصية ونظرنا الى الانسان كمـــا هو الان فكيف نفسر المشكلة المحيرة عن قسوة الانسان ؟ ومن أى زاوية ننظر اليها ؟

هناك احتمالان • الأول ان الانسان فى قســوته ـ التى نراها الآن ـ هو نفس الانسان كما وجد أصلا من البداية • وفى هذه الحالة تصبح الحروف ا ن س ا ن رمزا للقسوة ولا يمكن فصل الانســـان

عن القسوة • لكن ان كان هذا صحيحا فاننا نواجه مشكلتين • وانى أريد أن أبحث المشكلة الأولى بشيء من الاسـهاب ان كان الله الذات اللامحدود قد خلق الانسان القاسى فكيف نهرب من النتيجة الحتمية ان هذا الاله الذى خلق الانسان قاسيا لا بد أن يكون على نفس المستوى من القسوة والرداءة •

وهنا يظهر أمامنا المفكران الفرنسيان شارل بودلير والبرت كامو• فبودلير المؤرخ الأديب والمفكر العظيم له قول مأثور «ان كان هناك اله فلا بد أنه شيطان » ولا بد أن المؤمنين بالكتاب المقدس سيجفلون عندما يقرأون هذه الجملة • لكن ان فكرنا فى معناها فسنجد بعـد وقت أن المسيحى الحقيقى سيتفق مع بودلير • ان لم يكن هناك خط فاصل فى تاريخ البشرية بين الانسان كما هو الان والانسان كما كان أصلا فلا بد ــ ان كان هناك اله ــ أن يكون هذا الاله شيطانا وان كنا كمسيحيين نختلف تماما مع بودلير ، لكننا ان سلمنا بفروضه فلا بد أن نتفق معه فى النتيجة •

وقد ناقش كامو Camus نفس المشكلة ولكن من وجهة نظر أخرى مختلفة قليلا • فقال « ان كان هناك اله فلا يمكن أن نحـارب الشرور الاجتماعية • لأننا ان فعلنا ذلك فنحن نحارب الله الذى خلق العالم كما هو » ولا يمكن أن نعارض ما يقوله هذا المفكر ان كنا نسلم بالغرض ان الانسان ما زال على حالته التى كان بها وان فى الانسان قسوة أصلية ما زالت مستمرة على مر الزمن •

وعندما نصل الى هذه النقطة نجد أناسا يختارون اجابات غير منطقية • فالنوع الأول من الاجابات هو ما ذكرناه فى الفصل السابق• اذ يقولون انه لا توجد اجابات وان كل شيء فوضى ولا معقول • ومعظم الاجابات الدينية خصوصا فى ميدان اللاهوت الغربى العصرى المتحرر تتجه هذا الاتجاه اذ تقول « نحن لا نملك جوابا لهذا ، لكن دعونا نقفز قفزة الايمان باعتبار الايمان ضد العقل وكل ما هو معقول فنقول أن الرب صالح » هذا حال اللاهوت العصرى المتحرر سواء أكان يسير فى الخط التحررى التقليدى أو يسير اثر خطوات كارل بارت Barth ؛ لكن يجب أن ننظر الى هذه الاجابة باعتبارها جزءا من الرد الفوضوى اللا معقول •

ولقد سبق فقلت ان الناس الذين يجادلون بطريقة غير موضوعية يختارون متى يكونون غير منطقيين فى اجاباتهم • ففيما يدعون انهم يجادلون بطريقة منطقية سليمة ، اذا بهم يتغيرون فجأة عندما يصلون الى هذه النقطة فيقولون انه لا توجد الا اجابة غير منطقية عن صلاح الله اذا فاللاهوت العصرى المتحرر ينطوى تحت هذا النوع الأول من الاجابة •

واذا تأملنا هذا الاتجاه بعمق فاننا نجد الانسان عندما يصل الى هذه النقطة غير المنطقية يتوتر ويتجه اتجاهين فى وقت واحد • الأول اتجاه للرجوع الى المنطق والعقل واذ يصل الى أن الله اله صالح متخطيا كل منطق أو عقل فهو يحس بشىء فى داخله ، أو بنوع من التوتر • ونتيجة لذلك فان العصريين الذين ينادون بهذا الحل يعودون الى العقل وكلما فعلوا ذلك يفقدون هذا الحل المتفائل تفاؤلا أعمى • فما أن يدخلوا دائرة العقل والمنطق حتى يتبخر هذا الحل المتفائل لأن كل التفاؤل الخاص بصلاح الله مبنى فى رأيهم على اللامعقولية أو عدم المنطقية • فاذا عادوا الى المنطق العقلى فانهم يعودون الى التشاؤم •

أما الاتجاه الثانى عندما يصل الانسان الى هذه الاجابة فهو الدوران فجأة للاتجاه المضاد لجعل كل الأشياء غير منطقية • واذ يتجه الانسان كلية نحو اللامعقولية فانه يعود فيسأل نفسه أين أقف ؟ لذلك يجد أنه من الأفضل الاعتراف بأن كل شىء غير معقول وفوضى ولا معقول ويقرر انه لا معنى لاستخدام التعبيرات الدينية بالمرة • فلا يمكن حصر اللامنطقية فى جملة واحدة ان الرب صالح •

هذان هما الاتجاهان اللذان يقودان الى التوتر اذ يفكر الانسان فى اللجوء الى المنطقية فى هذه النقطة الهامة •

والمشكلة الثانية فى هذه الحالة هى :

ان قلنا ان قسوة الانسان الحالية هى نفس القسوة التى اتصف بها دائما وهى طبيعية فيه فكيف نتوقع تغييرا نوعيا فى الانسان ؟

قد يحدث تغيير كمى أى أنه قد يصير أقل قسوة لكن لا يمكن أن يحدث تغيير نوعى • فما دام الله قد صنع الانسان على الصورة التى

فرى عليها الانسان الان اذا فهذا هو الانسان • وهكذا نصل الى حالة من التشاؤم بالنسبة للانسان وأعماله •

هاتان هما المشكلتان اللتان تواجهاننا ان اتجهنا الى فكرة أن الانسان مخلوق بواسطة اله شخصى وأن الانسان هو كما كان ، لم يتغير•

دعونا نرجع للوراء قليلا لنفترض اننا نؤمن بالبداية الشخصية فنقول بأن ذاتا الهية خلقت الانسان وان الانسان ليس مجرد جزء من كل نهائى لا شخصى • أى أننا نعود الى أن الذات الالهية هى التى خلقت الانسان لكن الانسان الحالى ليس هو الانسان الذى خلقه الله ، وان الانسان الحالى ليس استمرارا للانسان الأول أو لنقل ان الانسان الحالى شخص غير طبيعى شاذ Ubnormal فقد تغير • هذا الكلام يؤدى الى سؤال آخر أو بالحرى علينا أن نختار اختيارا آخر • ان كان الله قد غيره أو أنه خلقه خلقة غير سوية اذن فهو اله سىء وبذلك لا نصل الى حل • لكن هناك احتمال آخر هو أن الانسان الذى خلقه الله قد غير نفسه وان الانسان الحالى ليس استمرارا للانسان الأول لا لأن الله قد أحدث فيه تغييرا بل لأنه غير نفسه فاختار الانسان حالته الحاضرة بنفسه وبذلك اختلف اختلافا جوهريا عن حالته الأولى • وبذا نفهم ان الانسان قاس لكن الله ليس الها سيئا • وهذا هو الفكر اليهودى المسيحى على وجه التحديد •

لقد فحصنا كل الاحتمالات الفلسفية وعرفنا ما هو وجه الخطأ فيها ، والى أى اتجاه تقودنا هذه الاحتمالات فى كل حالة • والآن وقد وصلنا الى احتمال آخر نجد أنه قد حدث تغيير تاريخى فى الانسان يشمل الزمان والمكان • كما حدثت عدم استمرارية فى حالة الانسان• فالانسان المخلوق على صورة الله لم يجبر على طريقة سير معينة فتحول عن نقطة تكامله الشخصى فى زمن تاريخى معين • واذ فعل ذلك صار شخصا آخر غير الانسان الأول • وصارت حيرة الانسان مشكلة أخلاقية أكثر منها مشكلة ميتافيزيقية فالانسان فى زمن محدد غير نفسه وهكذا نجد الانسان فى حالة مختلفة عن حالته الأولى التى خلق عليها وكل شىء يتوقف على هذه الحقيقة ان الانسان الآن شاذ غير سوى بعكس الانسان الأول • وطالما اختلف الفكر المسيحى مع فكر الفلاسفة غير المسيحيين حول هذه النقطة • فهؤلاء الفلاسفة ينادون بأن الانسان

الحالى انسان سوى أما المسيحية الكتابية فتقول بأن الانسان تغــير فأصبح انسانا غير سوى ٠

ومن الطريف بهذه المناسبة أن تعلم أن هيوجار قال « لا يمكنك أن تصل الى اجابات نهائية ان قلت أن الانسان سوى دائما » وهو يعبر بطريقته الخاصة عن ان الانسان غير سوى لكنه افترض نوعا مختلفا تماما من الشذوذ هو شذوذ فى المعرفة بمفهوم أرسطو ٠ لكن هذا لا يقدم اجابة حقيقية للمشكلة ٠ أليس أمرا مثيرا أن يعترف فيلسوف غــير مسيحى مثل هيدجار وهو من أعظم الفلاسفة فى العصر الحديث اننا اذا افترضنا ان الانسان مخلوق سوى فان هذا لا يوصلنا الى شىء ٠

واذ نعود الى الاجابة المسيحية ان الانسان الحالى غير سوى لانه فى وقت زمنى معين فى التاريخ غير نفسه ــ لا ادراكيا أو معرفيــــا بل أخلاقيا ، فاننا نواجه أربع نتائج :ــ

١ ــ اننا نستطيع الآن أن نفسر قسوة الانسان دون أن يكون الله الذى خلقه الها سيئا ٠

٢ ــ يوجد أمل فى حل هذه المشكلة الأخلاقية غير الأصيلة فى انسانية الانسان ٠ فلو كانت قسوة الانسان أصــيلة فى انســانيته اى لو أن الانسان خلق على هذه الصورة لما كان هناك أمل فى الحل ٠ لكن حيث أن الانسان لم يخلق على تلك الصورة فهناك أمل فى الحل ٠ وهذا هو الاساس الذى يجعل موت المسيح النيابى الكفارى حدثا مفهوما له دلالته ومعناه ٠٠ ففى اللاهوت العصرى نجد أن موت المسيح حدث بلا معنى بل مجرد كلمة الهية غير مفهومة ٠ لكن بالنتيجة التى توصلنا اليها يصبح لموت المسيح دلالته فهو ليس مجرد كلمة الهية أو قصة أو موقف وجودى لكن له معنى محدد ٠ ونجــد أملا للانســـان ما دام الانسان الحالى غير سوى ٠

٣ ــ وعلى هذا الاساس فاننا نجد أساسا قويا لمحاربة الشر بما فى ذلك الشرور الاجتماعية والظلم الاجتماعى ٠

الانسان العصرى ليس عنده أساس لمحاربة الشرور لأن الانسان

في نظره سوى أما المسيحى فلديه الاساس لأنه يحارب الشر دون أن يحارب الله • وعنده الحل لمشكلة « كامى » فنحن نحارب الشر ولا نحارب الله لأن الله لم يخلق الأشياء على الصورة التى نجدها الآن أو كما صنعها الانسان القاسى • لم يخلق الله انسانا قاسيا ولم يصنع الأشياء التى نتجت عن قسوة الانسان فكل هذه الأشياء الشاذة غير السية تختلف عما صنعه الله •

وهكذا يمكننا أن نحارب الشر دون أن نحارب الله •

في كتاب آخر من كتبي استشهدت بقصة المسيح أمام قبر لعازر • ففي رأيي أن ما صنعه المسيح عند قبر لعازر يكفي لاشعال النار في العالم • بل هو صرخة مدوية فى وسط ارتباك القرن العشرين • جاء يسوع ـ هذا الانسان الذى نادى بأنه الله ـ الى قبر لعازر • وفى اللغة اليونانية نرى بوضوح أن يسوع كانت تتنازعه عاطفتان : الأولى بكاء ودموع على لعازر والثانية انزعاج وغضب (يو ١١ : ٣٨) لقد انزعج وكان له كل الحق أن ينزعج ـ لشرور الموت ـ دون أن يغضب من نفسه باعتباره الله • وهذا موقف رائع فى وسط أفكار القرن العشرين عندما أرى الشر والقسوة غير الطبيعية (التى لم يصنعها الله) يجب أن أنفعل نفس انفعال يسوع • فانا لا أبكى فقط لأجل الشر لكنى أنزعج لأجله ما دمت واعيا أن محبة الذات ليست أساس انفعالاتى • وعندى الأساس لمحاربة الشيء غير الطبيعى الذى يخالف ما خلقه الله•

يجب أن يكون المسيحى فى المقدمة ليقاوم كل ما نشأ عن قسوة الانسان لأننا نعلم يقينا أن الله لم يخلق هذه الاشياء على هذه الصورة • ويجب أن نغضب وننزعج من نتائج قسوة الانسان دون أن نغضب من الله أو من أى شيء سوى •

٤ ـ يمكننا أن نجد أخلاقا حقيقية أو أخلاقا مطلقة لأن الله كلى الصلاح وصلاحه مطلق باعتبار أن الشر منفصل عن الله تماما • وشخصية الله هى الأخلاق المطلقة للكون • لقد كان أفلاطون محقا عندما قال « ما لم يكن هناك مثل مطلقة فلا يمكن أن توجد أخلاق » ولقد توصلنا الى الجواب الشافى لمشكلة افلاطون • لقد صرف وقتا طويلا ليجد مكانا يضع فيه مثله لكنه لم يتمكن من ذلك لأن آلهته لم تكن كافية•

لكننا هنا أمام الاله الذات اللامحدود الذى له شخصية منزهة عن أى خطأ أو شر • فشخصيته هى المثل الأخلاقى المطلق للكون •

وليس معنى ذلك أنه يوجد مطلق أخلاقى قبل الله أو خلافه يربط الله بالانسان لأن كل ما هو أزلى هو فى النهاية الله نفسه بل ان الله نفسه وشخصيته هى الأخلاق المطلقة للكون •

وكما أسلفنا فى بحثنا فى الميتافيزيقا يجب أن نفهم أن هـــــذه الاجابة ليست مجرد أفضل اجابة بل انها الجواب الوحيد الذى يحـل مشكلة الانسان فى مجال الأخلاق • وهذه الاجابة الوحيدة فى مجـال الأخلاق الحقيقية بما تتضمنه من حل لمشكلة الشر الاجتماعى مبنية على حقيقة هامة هى أن الله موجود • ان كان الله غير موجود (ليس مجرد لفظ الله بل الله نفسه اله العهدين القديم والجديد) فلا حـــــل بالمرة لمشكلة الشر والأخلاق • ومرة أخرى نقول لا يكفى ان يكون موجودا بل انه غير صامت •

فهناك ضرورة فلسفية ميتافيزيقية وأخلاقية تستلزم وجوده غير صامت • لقد تكلم ناطقا مخبرا عن شخصيته •

يخطىء المبشرون هذه الأيام ــ دون قصـــد منهم ــ اذ يشكرون الله فى صلواتهم للاعلان الذى أعلنه لنا فى المسيح • وهذا صحيح الى حد كبير بل انه لأمر عظيم أن يعلن الله لنا ذاته فى المسيح لكن قليلا ما أسمع شكرا على اعلان الله لنا بالكلمات فى الكتاب المقدس • فان الله ليس موجودا فقط لكن لا بد انه تكلم بل لا بد أنه تكلم بصـــورة مختلفة فالكتاب ليس مجرد مخزن للأحاديث العاطفية المثـــالية • نحن نحتاج أن نعـــرف من هو الله وما هى شخصيته اذ أن شخصيته هى قانون الكون • لقد عرفنا بشخصه وهذا هو مقياسنا وقانوننا الأخلاقى وهو ليس مقياسا جامدا متعسفا لأنه ثابت فى الله نفسه وهو مقياس صالح تماما لكل ماهو نسبى • فاما أن يكون مقياسنا ثابتا هكذا والا فلن تكون الأخلاق أخلاقا بل مجرد عرف اجتماعى أو مقاييس تحكمية فرضها علينا المجتمع أو الدولة ولا ثالث لهما •

ويجب الا ننسى أنه ليس خطأ أن يسأل الناس هذه الأســئلة فى

الميتافيزيقا والأخلاق بل يجب على المسيحيين أن يجيبوا بأنه لا يوجد جواب أفضل من أنه هناك اله غير صامت ٠

يجب ألا ننتهر الشباب والطلبة عندما يسألون هذه الأسئلة فمن حقهم أن يسألوا لكن يجب أن نوضح لهم أن اجابتنا هى الاجابة الوحيدة والا فلا اجابة ٠

فان كانت اجابتنا صحيحة فان الانسان ليس مجرد مخلوق صغير من الوجهة الميتافيزيقية لكنه من الوجهة الأخلاقية خاطىء مذنب ، وهو يحتاج الى حل لذلك فموت المسيح النيابى والكفارى له قيمة كبيرة اذ أنه الحل لهذه المشكلة ٠ ويجب أن يكون موته كفاريا نيابيا والا فلا معنى لموته ٠

فالمشكلة اذن ليست فى صغر الانسان (لأنه محدود اذ خلقه الله هكذا من البداية) بل فى حالته فهو يحتاج لحل للجرم الأخلاقى أمام الله المطلق كلى الصلاح ٠ هذه هى حاجة الانسان الحقيقية ٠

وأخيرا فاننا نعود فنؤكد (كما أسلفنا عندالتحدث عن الميتافيزيقا) ان الحل ليس فى كلمة اله فهذا لا يجدى ٠ فكثيرون من المعـــاصرين يحاولون أنيجدوا الجواب فى كلمة اله – وهذا مايحدث بين اللاهوتيين المعاصرين وجماعة الهيبيز وبعض أفراد Jesns peoplo – لكن الحل ليس فى حروف الكلمة بل فى مضمونها أى فى الاله الذى أخبرنا عن ذاته كالاله الأزلى غير المحدود الذات والثالوث الحقيقى ٠

وفى مجال الاخلاق لا نجد حلا الا على أساس سقوط الانســان التاريخى فى وقت معين ٠ عاش الانسان وقتا قبل السقوط ثم تحول الانسان عن نقطة تكامله باختياره فلم يستمر على حالة وتحــول الى انسان غير سوى ٠ حاول أن تستغنى عن هذه الأفــكار وستجد أن الجواب المسيحى فى مجال الأخلاق أصبح بلا قيمة ٠

كثيراما نرى بعض المسيحيين يتلاعبون بالجـــــزء الأول من التكوين ٠ لكنك اذا حذفت حقيقة تاريخية – هى سقوط الانسان فى وقت معين ومكانمحدد – فان الاجاباتتذهب هباء منثورا وليس الضرر قاصرا على مجرد الشك فى الحقائق التاريخية كما نراها فى سلسلة التاريخ البشرى لكنكل اجابة نعرفها فى مجال الأخلاق ومشكلة الانسان ستتبخر ايضا ٠

الفصل الثالث

الحاجة الى نظرية المعرفة

المشـــكلة

تبحث نظرية المعرفة فى طرق المعرفة أو أسس المعرفة • فموضوع بحثها هو : كيف نعرف ؟ أو كيف نعرف أننا نعرف ؟

ونظرية المعرفة تمثل المشكلة المركزية لعصرنا الحالى • فما نطلق عليه صراع الأجيال هو فى الحقيقة صراع بين جيلين فى المعرفة فالجيل الجديد ينظر الى المعرفة من زاوية تختلف تماما عن الزاوية التى ينظر منها الجيل السابق • ولقد تعرضت لهذه المشكلة فى كتابين من كتبى★ لذلك فلن أعود للتعمق فى بحث هذا الموضوع هنا بل سأكتفى بأن ألخص ما ذكرته عن توما الاكوينى والمشكلة التى نشأت عن فروضه ونظامه الفكرى • لكننا يجب أن نبدأ الموضوع من قبـل توما الاكوينى ، فنبدأ بالفلاسفة اليونانيين العظام •

فلقد قضى الفلاسفة اليونانيون وقتا طويلا يناقشون نظرية المعرفة• ولعل أهم فليسوف تعرض لهذه المشكلة وجاهد فى حلها بحساسية تامة هو أفلاطون • فقد وعى المشكلة الأساسية وهى انه فى مجال المعرفة (كما فى مجال الأخلاق) لا بد من وجود ما هو أكثر من الجزئيات أن كان هناك معنى • ففى مجال المعرفة نجد جزئيات نصفها بأنها مفردات فى العالم • وفى أى لحظة أستطيع أن أرى ألوفا بل ملايين من هـــذه الجزئيات فى لمحة خاطفة • لكن ما هى الكليـات التى تعطى لهـــذه الجزئيات معنى ؟ هذا هو لب المشكلة فى نظرية المعرفة •

وتوجد مشكلة أخرى تتعلق بها ألا وهى الطريقة التى نتعلم بها• فمثلا ان تكلمنا عن التفاح يمكننا أن نعدد أنواعا منه تصل الى مئتين

★ Escape from reason , The god who is there

أو ثلاث منه أما فى واقعنا العملى فنحن نضع كل هـــذه الأنواع تحت كلمة واحدة هى تفاح وبذلك نفهم ما نتكلم عنه أو ما نراه بطريقـــة أوضح . فنحن نترك الجزئيات ونكتفى بالعموميات . ونفس الأسلوب نستخدمه فى العلوم . فالعلم ينظر الى الجزئيات والخصائص ويحاول أن يضع القوانين التى تجمع هذه الجزئيات حتى تدرك العلاقات وحتى يمكننا أن نستوعب بطريقة أوضـــح . والقوانين العـــامة (مثـــل الكهرومغنطيسية أو الجاذبية) ما هى الا قوانين وصلت الى درجة من التعميم حتى انها تختصر كل الجزئيات فى العالم المادى الى عدد قليل من الكليات على قدر الامكان . اذ سواء كنا نتكلم عن التفـــاح أو عن العلم ففى عملية التعلم ننتقل دائما من الجزئيات الى الكليات .

هذه الأفكار ليست مجرد قواعد بل هى الطريق الى المعرفة . انها ليست مجرد نظـريات مجـــردة أو مجرد دراسة منهجية بل هى فى الحقيقة دراسة للمعرفة ولمعرفة أننا نعـــرف فالفـــلاسفة اليونانيون - وخصوصا افلاطون - كانوا يبحثـون عن الكليـــات التى تعطى للجزئيات معنى .

ونستطيع الآن تطبيق هذه الفكرة فى مجـــال الأخلاق وفهمها ببساطة . ففى الفصل السابق قلنا اننا فى حاجة الى كليات - فى مجال الأخلاق - ان كنا نريد أن نحكم على الصواب والخطأ . أما اذا لم تكن لنا كليات فان أحكامنا الخلقية تصبح مجرد أحكام اجتماعية يمـــكن الوصول اليها باستطلاع الرأى العام عن رأيه فى الصواب والخطأ . والأغلبية العددية فى هذه الحالة تحدد الحكم الأخلاقى . أو قد نلجأ لنخبة ممتازة مختارة نستطلعها الرأى فيما هو صواب أو خطأ . اننا فى حاجة الى شىء كلى عام يغطى كل الجزئيات .

واذا عرفنا قيمة الكليات فى مجال الأخـــلاق فنحن فى شديد الحاجة الى تلك الكليات فى مجال المعرفة .

كيف نتوصل الى الكليات العامة التى نستطيع أن تحتـــوى كل الجزئيات حتى اننا نعرف ؟

لجأ افلاطون الى مفهوم المثل الذى يعطى هذه العمومية الكلية .

ولشرح هذه الفكرة نأخذ مثلا عن الكراسى • دعونا نتصور كرسيا مثاليا موجودا فى مكان ما • وان هذا الكرسى له خواص تشمل كل خواص الكراسى الأخرى فى أى مكان • لذلك فان أى كرسى يشبه الكرسى المثالى نطلق عليه لفظة كرسى بالنسبة للمثال لا الى الجزئيات • فعندما ننطق اللفظ كرسى فاننا نتصور معنى عاما أكثر من مجرد مجموعة الخواص الجزئية للكرسى •

هذا هو الحل الذى أوجده افلاطون • مثل فى مكان ما يشتمل على كل الجزئيات الممكنة فى أى كرسى فى أى مكان • ولا يمكن أن يوجد كرسى خلاف هذا الكرسى العام أو خلاف مفهومنا عن الكرسى المثالى ، وكل ما يخالف هذا المثل ليس بكرسى•

ومن دراستنا لما يشابه مجال الأخلاق نستطيع أن نفهم مشـكلة المعرفة أو مشكلة التأكد من المعـرفة • فـكر اليونانيون فى طريقتين للاجابة : الأول كان فى معنى كلمة مدينة Polis • فهذه الكلمة تعنى ببساطة مدينة لكنها فى الفكر اليونانى كانت تعنى معنى أعمق من مجرد المعنى الجغرافى • فهى مفهوم يتعلق بتركيب المجتمع • اعتقد بعض اليونانيين ان كلمة Polis بمعنى المجتمع تعطى المعنى الكلى • لكن سرعان ما اكتشف اليونانيون بحكمتهم أن هذا المعنى لم يكن كافيا • لأنه فى ضوء هذا المفهوم يصبح المواطن على صواب ان وافق ٥١٪ من السكان على رأيه أو اتفق رأيه مع رأى الصـفوة من الناس • ثم اتجهوا الى رأى افلاطون عن الملك الفيلسوف ★ لكن حتى هذا الرأى كان محدودا • فحتى لو اختاروا الملك الفيلسوف فى المدينة وفى المدن الأخرى فان ذلك لن يؤدى الى الشمول والكلية التى تشمل كل الجزئيات

لذلك كانت الخطوة التالية هى الاتجاه الى الآلهة باعتبار ان الالهة يستطيعون توفير كليات اكثر من المدينة • لكن المشكلة ان آلهة اليونان (بما فى ذلك الآلهة التى تصورها افلاطون) آلهة ناقصة ليست فيها

★ نادى افلاطون فى جمهوريته بنظام طبقى وضع على رأسه الفلاسفة • لذلك جعل الملك فيلسوفا •

(المعرب)

الكفاية ، فهى آلهة شخصية بالمقارنة بآلهة الشرق (التى شملت كل شىء لكنها لم تكن شخصية) وبالتالى بقيت المشكلة لم تحل فى نظر اليونانيين وكما أن لفظ Polis بمعنى أن المجتمع لم يحل المشكلة لأنه لم يكن كبيرا كبرا كافيا كذلك عجزت الآلهة عن الحل لأنها أيضا لم تكن كبيرة • فقد كانت آلهتهم يحارب بعضهم البعض وكانوا يختلفون فى كل شىء جميل• وحتى لو وضعنا كل تلك الآلهة معا فان ذلك لم يكن كافيا (كما رأينا فى الفصل السابق) فى موضوع القدر • فهل كان القدر يتحكم فى الآلهة أم كانت الآلهة تتحكم فى القدر ؟ وهل كانت الأقدار هى الوسيلة التى تستخدمها الآلهة فى تصرفاتهم أم ان الأقدار هى الكليات خلف تلك الآلهة ، وهى التى تتلاعب بهم وتؤثر فيهم ؟

وهذا يوضح لنا فهم اليونانيين العميق لآلهتهم باعتبار أنها آلهة ليس فيها الكفاية • فهى آلهة قاصرة بالنسبة لموضوع القدر كما أنها قاصرة بالنسبة للمعرفة • فمع أن أفلاطون وغيره من اليونانيين أدركوا أهمية الكليات وعرفوا أنه بدونها لا وجود للصواب لكنهم لم يتوصلوا لمصدر تلك الكليات سواء عن طريق مفهوم المدنية أو الآلهة •

ولقد أدرك توما الاكوينى هذه المشكلة عند الفلاسفة اليونانيين • وقبل توما الاكوينى عاش البيزنطيون الذين لم يهتموا بالجزئيات فقد عاشوا بينها لكن بفكر يختلف تماما عن فكر اليونانيين • فلم يكن لهم أى اهتمامات بالطبيعة أو بالجزئيات • ولنا أن نشكر توما الاكوينى لأجل نظرته التى أعادت للطبيعة أهميتها فى نظر الانسان •

وعندما بدأ اهتمام توما الاكوينى بالطبيعة ينتشر (كما أشرت الى ذلك فى كتاب Escape form reason بدأ الفنانون يتأثرون به فقد بدأ الفنان Cimebue (١٢٤٠ ــ ١٣٠٢) يرسم بطريقة مختلفة • وكذلك دانتى (١٢٦٥ ــ ١٣٢١) بدأ يكتب بطريقة مختلفة • وقد كان للطبيعة تأثيرها على أعمالهما • ولكن بدأ الصراع بين الطبيعة والنعمة★ Nature and grac: ففى الطبيعة تجد الناس

★ ليس المقصود بالنعمة هنا المعنى اللاهوتى المعروف أى محبة الله التى لا نستحقها لكن يقصد بها المؤلف نقيضا للطبيعة الملموسة • فالنعمة تشمل السماويات والأشياء غير المحسوسة التى تؤثر فى الأرضيات • (المعرب)

كما تجد قانون العلة والتأثير يسود العالم • أما فى النعمة فتجد القوى الالهية وكيف تؤثر فى العالم • فى الطبيعة نرى الجسم وفى النعمة نرى الروح • لكننا نعود دائما لمشكلة الجزئيات والكليات لذلك نقول اننا نجد فى الطبيعة الجزئيات أما فى النعمة فنجد الكليات★ • فالفنانون الذين ذكرناهم أمثال سيمابو ودانتى وجيوتو (١٢٦٧ ـ ١٣٣٧) ومن تبعهم بدأوا يركزون على الطبيعة • وقد كان هذا مفيدا كما ذكرنا الا أنهم أوجدوا مشكلة • فقد أوجدوا أفكارا طيبة عندما أعادوا فكرة الطبيعة وأكدوها فى أفكار الناس الا أنهم أوجدوا أفكارا خاطئة لأنهم جعلوا الجزئيات قائمة بذاتها وبذلك فقدوا فكرة الكليات التى تعطى الجزئيات معنى •

وكما أوضحت فى كتبى السابقة فاننا نلاحظ أنه اذا اعتبرنا الطبيعة أو الجزئيات قائمة بذاتها ـ دون الله ـ فا نالطبيعة تطغى على النعمة • أو يمكن أن نقول ان كل ما يتبقى لنا من ذلك هو جزئيات لا كليات لأن الكليات تختفى ليس فى مجال الأخلاق فقط (مع أن هذا سيىء جدا) بل فى مجال المعرفة أيضا • وهنا نجد الاتجاه الى الانسان المعاصر الذى لا يبالى بالقيم الأخلاقية • فهذه بداية هذا الاتجاه • فهناك مجموعة كبيرة من الجزئيات لكن لا طريق لجمعها معا لذلك نجد الطبيعة تنتصر على النعمة فى مجال الاخلاق وبصفة أخرى فى مجال المعرفة •

ومن هنا نرى أهمية ليوناردو دافنشى • فقد كان أول رياضى معاصر فهم هذه المشكلة • وأنا أقرر ذلك لا لأنى أستقرىء فى آرائه مشكلة جيلنا المعاصر الذى لا يبالى بالقيم الأخلاقية بل لأنه فهم المشكلة فهما حقيقيا • لقد عرف ـ عبر مئات من السنين التى تفصل بينه وبين الانسان المعاصر ـ ما هى نهاية الانسان العقلانى اذا فشل فى الوصول الى حل• وهذه هى العبقرية بعينها أن تتفهم أشياء سابقة للعصر • وهذا ما عرفه ليوناردو دافنشى عندما قال انه اذا بدأنا بالعقلانية فقط (أى اذا بدأ

★ النعمة هنا تمثل الكليات فهى تناظر عالم المثل عند أفلاطون • فهى تشمل كل ما هو علوى كالخالق والأنوار السماوية غير المنظورة • أما الطبيعة فهى تشمل كل ما هو مخلوق كالأرض والأرضيات وما يفعله الانسان على الأرض • والجسد الانسانى

الانسان بنفسه دون أى معرفة خارجية) فانه يصل الى تراكيب رياضية وجزئيات وينتهى الى حالة ميكانيكية فقط • وهكذا نرى انه قد سبق عصره عندما رأى ان كل شىء سينتهى الى الآلة • ولن توجد الكليات وسيزول المعنى بل ستلغى الكليات من حياتنا • وهكذا صار فكر ليوناردو مقاريا تماما لفكر الانسان المعاصر •

وقد نادى ليوناردو بأن الفن يجب أن يرسم الكليات وهو معنى قريب جدا للمفهوم الحديث عن اختبار الأشياء العلوية • وقد بدأ يرسم ويرسم محاولا رسم الكليات • ولقد حاول هذه المحاولة بنفس فكر افلاطون الذى قال اننا اذا كنا نريد حقا أن نصل الى معلومات عن الكراسى فلا بد من وجود كرسى مثالى وفى مكان ما يجمع فى صفاته كل أنواع الكراسى • ولقد نادى ليوناردو وهو من أتباع مذهب الافلاطونية الحديثة قائلا « ليتجه الانسان الى انتاج الكليات » ولكن من هو هذا الانسان ؟ هل هو عالم الرياضيات ؟ لا ، بل الفنان الرسام ذو الحس المرهف • وهكذا نجد ليوناردو شخصية هامة فى مجال المعرفة الانسانية • وهذا ما أشرت اليه فى كتابى Escape from reasen عندما فرقت بين العلم الحديث والجديد من العلم الحديث •

وفى كتبى السابقة أشرت أيضا الى هويتهيد Whitehead وأوبنهيمر Oppenheimer وهما اثنان من العلماء ومع أنهما غير مسيحيين بالمعنى الحقيقى الا انهما قررا ان العلم الحديث لم ينشأ الا لترعرعه فى الجو المسيحى •

وأرجو أن تحتملونى عندما أكرر هذا لأنى أريد أن أتقدم خطوة أخرى فى مجال المعرفة • وكما يشير هويتهيد فى عبارة رشيقة : ان هؤلاء الناس جميعا آمنوا بأن الكون صنع بواسطة اله حكيم لذلك يمكن الوصول الى أسرار الكون بالعقل ، هذا هو الأساس الذى بنى عليه العلم الحديث • فالعلم الحديث هو العلم الأصيل الذى آمن العاملون فى مجاله بتناسق العلل الطبيعية فى نظام محدد هذا النظام الذى يمكن لله وللانسان المخلوق على صورته أن يعيدوا تنظيمه • هذا هو نظام العلة والمعلول فى مرحلة زمنية محدودة •

ومنذ عصر نيوتن (ولا أقصد نيوتن نفسه بل أتباعه) بدأ مفهوم

الآلة وساد هذا المفهوم حتى لم نعد نجد سوى الآلة • وعندما ننتقل الى الجديد فى العلم الحديث نجد انتظام العلل الطبيعية فى نظام مغلق بما فى ذلك علم الاجتماع وعلم النفس • فالانسان أصبح متضمنا فى الآلة• هذا هو العالم الذى نعيش فيه • ففى عصر العلم الان لم يعد النـاس قادرين على التأكد من أن الكون منطقى ومعقول لأنه مخلوق بواسطة اله عاقل حكيم • وهذا يثير التساؤل الذى وعاه ليوناردو دافنشى كمـا فهمه اليونانيون من قبله كي فـيعرف رجل العلم ؟ وعلى أى أساس يعرف أن ما يعرفه يعرفه فعلا ؟

وهكذا وضع العقليون مفهوم « الوضعية » فى مجـال المعرفة • والوضعية نظرية فى فلسفة المعرفة تفترض أننا نستطيع معرفة الحقائق والأشياء بطريقة موضوعية بحتة • والعلم الحديث مبنى على هـــذه الفكرة •

انه مفهوم مثالى حقا جعل الانسان العقـــلانى يحس بكثير من من الكبرياء كما يحس بأن قامته قد طالت عشرة اقدام • هذا المفهوم يفترض أن الانسان ــ المحدود بفكره المحدود ــ دون أن يبدأ بأى كليات ــ يستطيع أن يصل الى معلومات حقيقية كافية وأن يصل الى الكليات من الجزئيات •

احد القادة فى هذا الميدان هو جان جاك روسو فقـد غير قانون « الطبيعة والنعمة » الى « الطبيعة والحرية » ــ الحرية المطلقة • فقـد رأى روسو والناس الذين حوله أن كل شىء قد تحول الى آلة فى مجال الطبيعة • فقالوا بأن الشىء العلوى هو الحرية المطلقة • وفى ضوء هذا المفهوم ــ الحرية المطلقة باعتبارها المثل الأعلى ــ لم يعـــد الاعـلان Pevelalion هو الذى يحد الانسان لا ولا المجتمع أو المدينة P olis

هذا المفهوم ــ مفهوم الحرية الشخصية ــ يرى بوضوح فى رسوم جوجين gaugin فقد تخلص من كل القيود ليس فقط قيود الله بل حتى قيود المدينة التى كانت تبـــدو ــ حسب رأيه ــ صغيرة جـــدا نظرا للتقدم الهائل فى الحضارة الفرنسية • ولقد ترك جوجين فرنسا وذهب الى تاهيتى ليتخلص من قيود الحضارة (المدينة) حتى يختبر

مفهوم الانسان البدائى غير المتحضر وهو المفهوم الذى نادى به روسو ، فالتخلص من القيود يعنى التخلص من قيود المدينة ثم من قيود الله - أو الآلهة - وهذا يعنى الحرية ٠

ويا لتعاسته المتوقعة ، فلم تسر الأمور على ما توقع ٠

اذا فان ما نصل اليه فى النهاية ليس مجرد حرية مفسدة مخربة فى مجال الأخلاق فقط (ولو أنها تظهر بسرعة فى هذا المجال خصوصا فى فوضى الحياة الجنسية) بل فى مجال المعرفة أيضا ٠

ورغم أنه من المفروض أن نتمتع بالحرية المطلقة فى مجال الدراسة فيما وراء الطبيعة كما فى مجال الأخلاق لكن المشكلة هى : كيف تعرف ؟ وكيف تعرف انك تعرف ؟

ولنا أن نتصور اليونانيين ، وليوناردو دافنشى وكل أتباع الافلاطونية الحديثة فى عصر النهضة وقد جاءوا الى روسو وأتباعه ليسألوهم : « ألا ترى ما فعلت ؟ أين الكليات ؟ كيف ستعرف ؟ كيف ستبنى كليات تكفى لاستمرار المجتمع من تلك الجزئيات ؟ كيف تبنى معرفة حقيقية ، معرفة تتحقق منها وتتأكد من معرفتها ؟ » ٠

انها فى الواقع خطوة فقط ما بين أناس مثل جوجن وبين الهيبيز بل وبين كل الحضارة الانسانية الحديثة ٠ فمن وجهة معينة نضع بين قوسين فى مسار الزمن العصر من روسو حتى بداية حركة الهيبيز ، بل والحضارة المعاصرة المبنية على عدم وجود كليات أو عموميات فى أى مكان ، ان الانسان مخلوق للذة والمتعة والحرية فقط ٠ هذه الحرية فى المتعة واللذة ليست فى مجال الأخلاق فقط بل فى مجال المعرفة أيضا ٠ ونستطيع أن نرى بوضوح وسهولة الارتباك الاخلاقى الذى نشأ عن ذلك لكن الارتباك المعرفى أسوأ ٠ فان لم تكن هناك كليات فكيف نفرق بين الحقيقة واللاحقيقة ؟ وعند هذه النقطة نجد أنفسنا فى حضن مشكلة الانسان المعاصر كما سأبين فيما بعد ٠

لنتقدم الان الى الفترة التالية لروسو ٠ ويرجع الفضل فى هذه

الفترة الى عمانوئيل كانتوهيجل فى تغيير مفاهيم علم المعرفة • فقدكان الناس قبلهم بطريقة ضد الشيء•كأن تقول ان «س»ليست «لا س» وهذه هى الخطوة الأولى فى المنطق الكلاسيكى• وبمعنى آخر فاننا نقول ان كان هذا الشيءصحيحا فنقيضهذا الشيء ليس صحيحا •هذا هوالطريق الكلاسيكى للمعرفة • لكن هيجل قال بأن النقيض لا يتمشى مع الفكر لذلك اقترح أسلوبا مغايرا للوصول الى المعرفة • فبدلا من استعمال النقيض نادى بالتعامل مع المركب Sgnthesis وهكذا أوجد مثلثة المشهور • فكل شيء مكون من موضوع يقابله نقيض الموضوع والجواب دائما هو المركب ولقد حدث تغيير جذرى فى كل العالم فى مجال الأخلاق وفى العلوم السياسية كما حدث تغيير أقل وضوحا فى مجال المعرفة • لقد غير هيجل كل النظرية عن كيفية المعرفة •

وانتقل بعد ذلك سريعا الى كيركجارد الذى طور هـذه الأفكار وأضاف اليها خطوات أخرى تناقش الثنائية المجردة بين الفكر واللافكر • فكيركجارد ومدرسته من بعده يقولون بأن كل ما له معنى منفصل دائما عن الفكر • فالفكر يقودالى الأشياء السفلية كالمعرفة الرياضية بلامعنى، أما المعرفة العلوية فانها نرجو أن يصل من خلالها الى المعنى اللامعقول للجزئيات •

كل هذه المناقشات ترجع أساسا الى أربعة رجال ناقشوا نظـرية المعرفة هم روسو ـ كانت هيجل ـ كيركجارد • ومن بعد هيجل استبدل الناس فكرة النقيض بفكرة المركب وهكذا انقلبت نظرية المعـرفة من أساسها • واليوم نجد للوجودية أقطابا ثلاثة هم : جـان بول سارتر الفرنسى ، وهيدجار الألمانى وكارل باسبزر وهو ألمانى عاش فىسويسرا ولو أننا نستطيع التمييز بين القوالب الفكرية للوجودية الا أنها كلها ترجع الى نفس الفكرة • فكل من هؤلاء الفلاسفة يعـبر عن الوجودية بصورة مختلفة لكنهم كلهم متفقون على أن الفكر المجرد يقود الى شيء فظيع فى مختلف المجالات ـ بما فى ذلك مجال المعرفة • بل اننا نضيف وفى مقدمتها المعرفة • وفى رأى هؤلاء المفكرين أن المعرفة التى نصل اليها بفكرنا هىالنظريات والقوانين الرياضية التى تجعل الانسان مجرد آلة • لكنهم يأملون ان يصلوا الى نوع من الاختبار الصوفى العلوى الغامض يختلف عن الفكر المجرد ويؤدى الى الكليات •

وهنا نحس مرة أخرى بتيار حركة الهيبيز والاتجاه الى حضارة المخدرات • فالانسان يحاول جاهدا أن يجد الحل داخل رأسه لأنه غير متأكد من وجود شيء ما خارجه • وها ما توصلنا اليه • وأنا متأكد أن الفجوة بين الأجيال ترجع أصلا الى مجال المعرفة • فقديما كان الانسان يتمتع بأمل خيالى أنه يستطيع بفكرة أن يجد معنى لحياته وأن يجعل الكليات تسود على الجزئيات • ولكن جاء روســـو وكانت وهيجل وكيركجارد وتلاشى هذا الأمل • وشبابنا اليوم يعيشون فى عصر لم يعد يؤمن بالرجاء فى الوصول الى الحقيقة • لهـــذا أنا أستخدم تعبيرا خاصا : الحق الحقيقى T rueTruth لأنبر على هذا الحق • وهذا ليس مجرد حشو أو تكرار لا معنى له فى الكلام بل أنا أعنى أن كلمة الحق الآن تعنى معنى لم يكن موجودا قبل هؤلاء المفـكرين الأربعة • بل انهم لا يعتبرونه حقا على الاطلاق • لذلك صغت هذا التعبير لأصل الى المعنى • لكن من الصعب أن نحدده حتى يتفهم النـــاس عمق المشكلة •

وبعد كيركجارد نجد أن الفكر أو العقلانية تقود الى التشاؤم فقد نعرف الحقائق الرياضية لكن يبقى الانسان مجرد آلة • وأى اتجاه يقود الى التفاؤل يصل اليه الانسان فى مجال اللامعقول – أو الأمور العلوية • لذلك فان الفكر – بما فى ذلك العلم الحديث – سيقودنا حتمـا الى التشاؤم فالانسان مجرد آلة ، والانسان مجرد صفر ، ولا معنى لأى شيء • فأنا لا شيء ، مجرد جزىء بين آلاف الجزئيات • والجزئيات ليس لها معنى وخصوصا الانسان وعلى وجه أخص أنا كجزىء • أنا بلا معنى • فأنا أموت • ولقد مات الانسان •

يتساءل الطلاب باستغراب : لماذا يعاملون وكأنهم كارتات مثقبة تستخدم لتغذية الآلات الحاسبة ؟ هذا هو السبب •

لذلك يقفز الانسان الى الأمور العلوية ، الى كل أنواع الغموض فى مجال المعرفة • •

فالانسان غامض لأنه منفصل تماما عن الفكر والعقل وهـــذا الغموض يختلف تماما عـن كل ما سـبقه من غموض • فالصوفيون والباطنيون افترضوا وجود شيء • أما بالنسبة للانســـان المعاصر

فالغموض الانسانى مجرد تصوف لفظى يتعامل مع الألفاظ اللغوية التى لا ترتبط بأى شيء خارجى بل بأشياء فى رأس الانسان ، أو فى اللغة بصورة أخرى • ولم تنتشر المخدرات فى العصر الحديث الا كوسيلة لايجاد معنى للحياة فى رأس الانسان •

والحالة الحاضرة يمكن تلخيصها فى مجالين

(١) الوضعية العقلية Rationdal Positivism وهى تعنى بالبحث عن الحقيقةالعلمية التى تقود الى القانون الرياضىوبذلك يصبح الانسان آلة •

(٢) دائرة اللامعقول حيث نجد كل أنواع الغموض اللامعقول • ولنعد ثانية الى الوضعية (وهى التى تبحث فى الأمور السفلية بالمقارنة بالأمور العلوية) لقد كانت أمل الانسان المفكر لكنها ماتت تدريجيا •

اذكر عندما بدأت ألقى محاضرات فى جامعتى أكسفورد وكامبردج أننى كنت أغير طريقتى فى كل منهما • لأنه بينما كانت جامعةأكسفورد تدرس المنطق الوضعى كانت جامعة كامبردج تدرس التحليلاللغوى(٢) أما الآن فان التحليل اللغوى هو السائد فى كل جامعات العالم وماتت الوضعية تدريجيا • وانى أنصح من يريد التعمق فى بحث أسباب انتهاء هذه الفلسفة أن يقرأ كتاب ميخائيل بولانى (٣) • ولو أن اسم هذا الكاتب غير مشهور لكنه أحد الكتاب المرموقين فى مجال الفكر • وكتابه المشار اليه يبين لماذا ماتت الفلسفة الوضعية لأنهـــا فلسـفة غير كافية فى مجال المعرفة • اذ أن العلم الحديث فى محاولاته للوصول الى

---

(١) الفلسفة الوضعية : (وصاحب مدرستها أوجست كونت) تعنى بالظواهر والوقائع اليقينية فحسب مهملة كل تفكير تجريدى
(المعرب)

(٢) مع ازدياد دور الدراسات النظرية فى العصر الحديث ظهر اتجاه لدراسة المحتوى المنطقى للغة خصوصا ما تحتويه من رموز(فى العلوم الطبيعية والرياضية) وقد اتجهت الوضعية الحديثة الى اختزال المشكلات الفلسفية الى مجرد تحليل منطقى للغة
(المعرب)

(3) Mdchael Polanyi , Personal Knomledge
An Introbuction to Post Critical Philosophy

معلومات معينة باء بالفشل • والآن لا توجد غالبا ولا جامعة تدرس الفلسفة الوضعية فى الدراسات العليا .لكنها. تدرس فقط للسنوات الأولى فى الجامعة لشرح الأساسيات فى أذهان الطلبة ـ ولو أن حتى هذا الأساس لم يعد موجودا •

والآن دعونا نحلل ما وصلنا اليه • يقول هويتهيد ان العلماء الأوائل أمثال كوبرنيكوس وجاليليو حتى عصر نيوتن ثم فاراداى كانت لهم الشجاعة الكافية لوضع أسس العلم الحديث لأنهم كانوا يؤمنون ان الله الذات الحكيم خلق العالم • لذلك تمكنوا من الوصول الى الحقائق العلمية عن طريق العقل • لكن عندما نأتى الى العلوم الطبيعية فاننا نهدم كل البناء ونضع الفلسفة الوضعية بدلا منه • أما الآن فحتى هذه الفلسفة قد انقرضت •

وبولانى يقول ان الوضعية غير كافية لأنها لا تضع فى اعتبارها شخصية العالم الباحث نفسه • بل انها تتصرف كما لو أنه يمكن الاستغناء عن هذا العالم ـ مع أنه يعرف أشياء معينة معرفة كاملة • أو كما لو كان هذا العالم يعرف دون أن يكون موجودا • أو يمكن أن نقول أن الوضعية لا تأخذ فى اعتبارها نظريات العالم وافتراضاته باعتبارها خلفية تغذى معلوماته •

وهنا المأساة التى يوضحها لنا بولانى • لأن هذا الكلام غير صحيح • فلا يوجد عالم فى الفلسفة الوضعية لا تتأثر معلوماته بخلفية معينة سواء أكانت نظرية أو رأى عالمى يرى من خلاله • أما مفهوم الشخص الذى يلاحظ دون تحيز أو أى تأثير فهو مفهوم خيالى • ولا وجود للعلم اذا لم يوجد الشخص الذى يشاهد ويلاحظ •

لما كنت شابا كنت أسمع الناس من حولى يقولون ان العلم موضوعى بحت • ولكن ظهر اتجاه فى جامعة اكسفورد منذ بضع سنين يقول بأن هذا غير صحيح • فلا يوجد علم بدون عالم يشاهد ويلاحظ • هذا المشاهد يقوم بالتجربة ثم يلاحظ نتائج التجربة ويدون ملاحظاته ونتائجه حتى يصل الى النتيجة• وبولانى يؤكد أن هذا المشاهد لا يمكن أن يكون محايدا لأنه لا بد أن يتأثر بخلفية معينة ولا بد من وجود افتراضات معينة فى رأسه تؤثر على النتائج التى يصل اليها •

دعونى أتقدم خطوة أخرى فأقول بأن الفلسفة الوضعية تواجه مشكلة أساسية · فالانسان يحكم على نظام ما من خلال التركيب العام الذى يوجد فيه · ولا يمكن أن نخلط النظم والا فلن نصل الى أى فكر حقيقى·أما فى ضوء الفلسفة الوضعية كتركيب عام فلا وسيلة للتأكد من أن أى شيء موجود · بل أنك ـ فى ضوء هذه الفلسفة ـ تبدأ مجردا من أى شيء وكأن لا شيء موجود · فالفروض لا وجود لها · وكل ما يصلك من معطيات مشكوك فيها · بل ان هذا النظام الفكرى (الوضعى) لا يقدم لك أى شيء عام ـ خارجك ـ تثق أنه يعطيك فروضا حقيقية يعتمد عليها · بل أنك تشك فى وجود أى شيء ، حتى اذا وصلت الى بداية الأشياء فانك لا تستطيع أن تفرق بين الحقيقة والخيال ·

وهناك مشكلة أخرى · فالذى يؤمن بالوضعية لا يمكنه أن يتأكد من وجود أى شيء · بل حتى لو افترض وجود شيء فلا يوجد ما يثبت له أن هذا الشيء حقيقى أو حتى قريب من الحقيقة · بل انه من خلال هذه الفلسفة لا يمكن اثبات وجود أى علاقة بين المشاهد وموضوع المشاهدة ·

وعندما نصل الى الآراء الحديثة فاننا نجد مفكرا معاصرا معروفا هو كارل بوبر Karl Popper يقول بأن الشيء بلا معنى ما لم يتعرض للتحقيق أو اثبات الزيف · ولكن فى كتاب حديث له تراجع خطوة للوراء فقال لا وسيلة للتحقق من الصدق · فلا يمكنك اثبات صدق شيء لكن يمكنك فقط اثبات الزيف · بمعنى أنه لا يمكنك أ ن تقول ما هو الشيء لكنك تستطيع أن تقول ما ليس فى هذا الشيء · عندما حطم بولانى الوضعية بأسلوبه الرائع وصل الى حالة من الشك المطلق فى مجال المعرفة · وهذا نفس المصير الذى وصل اليه كارل بوبر فى كتابه الأخير وفى العلم نجد نفس المشكلة لكننا نجد ما نسميه المفهوم النموذجى · فالانسان يجد أن الحقيقة الموضوعية غير واضحة وكل ما يتبقى للانسان هو هذا المفهوم النموذجى فى رأس العالم ·

وصلنا الى أن الفلسفة الوضعية ماتت وانتهت وحل محلها التحليل اللغوى Limguistic analysis ولم تترك لنا الوضعية أى نوع من المعرفة بل تركت لنا مجموعة من المتوسطات الاحصائية والتقريب

بدون أى تأكيد أن أى شىء كان موجودا او أن أى شىء سيستمر ·
ويمـــكن أن نستشهد على ذلك بأقـــوال الفريد كورزيبيسـكى Korzybski ودكتور دافيد بورلاند David Baurland اللذين كتبا كتاب « علم دلالات الألفاظ » Geueral Semautics
ولم يسمحا باستخدام أفعال الكينونة Yerb to be وكتبا كل كتبهما دون استخدام هذه الأفعال · لماذا ؟ لأنهما يقولان انه لا يمكن التأكد من الاستمرار · ما أشبه ذلك فى رأيى بتيار الفـــكر النفسى عن الوعى Conscloussess الذى يصل بنا الى اننا غير متـــأكدين من وجود « أنا » ·

ثم أريد أن أتحول الى الفيلسوف لدفنج فتجشتين Ludwing Wittgensuјэ‡ الذى يعتبر المفتاح الحقيقى لهذا الموضـوع · كتب هذا الفيلسوف كتابا أسماه Tractatus قبل أن يتحول الى فلسفة التحليل اللغوى أخيرا · قال ان فى هذا العالم فى مجال الفكر حقائق وافتراضات العلوم الطبيعية · وهذا كل ما يمكن أن يذكر أو ما يمـــكن التعبير عنه لفظيا · بل ان هذه هى حدود اللغة والمنطق · ففى العالم الســـفلى يمكن أن نتكلم لكن كل ما يمكن أن ننطق به عبـــارة عن فروض رياضية للعلوم الطبيعية · فاللغة مرتبطة بالعالم السفلى للفكر وتنتهى بالقوانين الرياضية · لكن برتراند Bertrand Russel يؤكد أن فتجنشتين كان رجلا غامضا · فقد تصور فى العـالم العلوى الصمت ·· لأنك ما أن تخرج خارج حدود العلوم الطبيعية حتى لا تجد ما تنطق به · ومع أن الانسان فى حاجة ماسة الى قيم وأخلاق ومعانى لكل شىء ولكن لا يوجد الا الصمت · وهذا ما دفعنى لاختيار اسم هذا الكتاب « اله غير صامت » ردا على كتاب فتجنشتين « الصمت » فقـد أوحت لى هذه الكلمة بعنوان هذا الكتاب · يقول فتجنشتين انه فى مجال ما يحتاجه الانسان بشدة من قيم وأخلاق ومعانى لا وجود الا للصمت · والانسان يعرف قيمة هذه الأشياء ويقاوم لكنه لا يستطيع حتى أن يتكلم عنها أو يفكر فيها · فالقيم والأخلاق والمعانى فى الأماكن العلوية فقط دون اعتبار الى مقدار حاجتنا اليها وهناك لا وجود الا للصمت ·

واستطرد فتجنشتين من ذلك الى التحليل اللغوى وهى الفلسفة السائدة الآن فى العالم كله · هذه الفلسفة التى نشأت نتيجة للفراغ

الذى أعقب فشل الفلسفة الوضعية • ولا ننسى أن فلسفة فتجنشتين (فى أول حياته) والفلسفة الوجودية متشابهتان جدا فى موضوع الصمت • ولو أنك انتقلت من انجلترا الى أوربا فى دراستك للفلسفة فستجد الناس يظنون أنهما مختلفتان جدا • لكن نقطة التشابه الحقيقية بين الفلسفتين هى قول فتجنشتين أنه لا وجود للقيم الحقيقية أو المعانى فى كل هذه الأشياء بل لا شىء الا الصمت • والذين شاهدوا الفيلم الذى قدمه برجمان « الصمت » يحسون بأن هذه الأفكار مألوفة لهم تماما • فقد كان برجمان فيلسوفا عندما توصل الى الفكرة القائلة بأنه لا يوجد شىء يمكن التحدث عنه فى هذا المستوى العلوى • وان الله ــ كما يعرفه الوجوديون ــ بلا معنى • وهذا هو ملخص فكرة فيلم الصمت • أى أن برمجان التقى مع الفيلسوف اللامع فتجنشتين فيما قال قبله بسنين عديدة • ويعتبر فيلم برجمان توضيحا لفكر فتجنشتين •

لاحظ أننا وصلنا الى كل ما هو ضد الفلسفة لأن كل ما يجعل للحياة معنى أو يربطها برباط معين حتى لا تكون مجرد جزئيات هو شىء علوى من الصمت المطلق • لذلك فقد وصلنا الى فلسفتين تعارضان الفلسفة • الأولى هى الوجودية وهى ضد الفلسفة بمعنى أنهما تدرس القضايا الهامة لكن بلا فكر • والثانية هى فلسفة فتجنشتين التى توصل اليها فى آخر أيامه أى التحليل اللغوى وهى ضد الفلسفة أيضا لأنها تتجه الى تعريف الكلمات فى مجال الفكر بحيث يستطرد التعريف اللغوى الى تعريف لغوى آخر وهذا هو كل شىء •

وقد أدى هذا ليس فقط الى عدم الثقة فى وجود قيم بل الى عدم الثقة فى المعرفة ذاتها •

واذ نتحدث عن فيتجنشتين وتحوله الى مجال اللغة كما رأينا فلابد لنا أن نتحدث عن هيدجار الذى عالج أيضا موضوع اللغة لكن من زاوية أخرى • وهيدجار فيلسوف وجودى قال بأن الوجود الانسانى هو الذى يعطى معنى لوجود شىء • ثم تطرق الى فكرة أخرى عندما قال انه بالنسبة لوجود لغة فى العالم فاننا نأمل فى وجود شىء • وهو أمل لا معقول فى وجود معنى نهائى كلى لكل الأشياء وهيدجار يقول :استمع الى الشاعر ولا يهم مضمون ما يقوله من أشعار لكن يجب أن تستمع

لأنه يوجد شاعر يلقى شعراً أى لأنه يوجد كائن موجود يتحـــدث ٠ وهذا يجعلنا نأمل فى أن الوجود له معنى ٠ ولكى يجعل لفكرته أساسا تجريبيا ـ حتى لا تكون مجرد فكرة خيالية ـ فانه يبرهنها بالقول بأنه فى عصر ما قبل سقراط ـ وقبل أرسطو ـ وجدت لغة عظيمة لوجـود الخبرة الأولية المباشرة من الكون ٠ وهذا مجرد افتراض ليس له أى أساس تاريخى ٠ لكن هيدجار وضع هذه الفكرة كمحاولة يائسة لوضع أساس تاريخى لفكرته الغامضة ٠

ويجب الا يغيب عن أذهاننا أن هذه المناقشات ليست مجرد نظريات لا تأثير لها اذ أن فكر هيدجار مثلا قد أحدث تأثيرا على علم التفسير الحديث ٠ كما أن هذه المناقشات لها أثرها على عقول الطلاب ٠ فهى ليست كلمات مجردة لكنها تغير العالم ٠

وعند هذه النقطة يجب أن نلاحظ عاملا هاما ٠ فسواء كنا نستمع الى هيدجار الذى يقول « استمع الى الشاعر » وهو يقدم لنـــا مفهوما غامضا علويا لدلالات الألفاظ يبدو وكأنه يقدم الأمل أو سواء كنا ندرس فتجنشتين الذى ينحو الى جانب آخر ـ لعله أكثر أمانة ـ عندما يقول انه لا يوجد الا الصمت فى المستوى العـــلوى ، فان كل ما نستطيع أن نفعله هو تحديد الكلمات والمفاهيم التى لا يمكن أن تؤدى الى المعانى والقيم ٠ والأمر العجيب الذى يهمنا أن الانسان لخص كل هذا واستنتج منه أن سر كل الأشياء يكمن ـ بطريقة ما ـ فى اللغة ٠ لذلك فان عصرنا هو عصر دلالة الألفاظ ٠

ولنلاحظ دلالة هذه المناقشة بالنسبة لنا فان السؤال المطروح أمام هيدجار وفتجنشتين وبرجمان هو : هل يوجد فى الكون من هو قادر على التحدث ؟ ونجد أنفسنا محاطين ببحر متلاطم من الأفكار اللافلسفية (ضد الفلسفة) الوضعية ـ وهى فلسفة متفائلة وتعتبر أساس العلوم الطبيعية ـ ماتت بعد أن أثبتت أنها غير كافية فى مجال المعرفة ٠ وما ظهر بعد الوضعية من بدائل لها مثـــل الوجودية فى جانب والتحليل اللغوى فى جانب آخر ـ وهى أضداد الفلسفة ـ تجعل الانسان يعيش بلا أمل فى الأخلاق والقيم والمعانى والتأكد من المعرفة ٠ وحتى بولانى ـ الذى كان رائدا فى تحطيم الفلسفة الوضعية ـ وصل به الحال الى

الشك الكامل فى مجال المعرفة وهو نفس المصير الذى وصل اليه كارل بروبر أيضا • لقد أصبح الانسان فى حيرة فالوضعية انتهت وما تبقى هو الشك فى المعرفة • هذا هو حال الانسان المعاصر سواء أدرك الفرد ذلك أو لم يدركه •

والذين نشأوا فى العشرين سنة الأخيرة يعيشون فى هذه المشكلة • فالحيرة الحقيقية ليست فى انتشار المخدرات واللا أخلاقيات بل ان المشكلة الحقيقية هى فى المعرفة • فهذا جيل اللافلسفة والناس يعيشون فى عصر عدم التيقن من المعرفة ففى المستوى السفلى ـ الذى تنتسب اليه العقلانية ، والذى يتحدث فيه الانسان بلغة ذات معنى يرى الانسان نفسه وقد تحول الى آلة مسيرة ولا مجال له للتأكد من المعرفة حتى فى مجال العالم المادى • أما فى المستوى العلوى ـ الذى يعزى اليه اللا معقول ـ يجد الانسان المعاصر نفسه بدون مقولات★ لأن المقولات أساسها العقل ونقيض الموضوع • ففى المستوى العلوى لا يمكن أن نقرر أن موضوعا ما صواب بالمقابلة مع موضوع آخر خطأ (أو غير صحيح ان أردنا استخدام أحدث المصطلحات) •

وفى مجال الأخلاق فى المستوى العلوى لا يمكن أن تحكم على شىء بأنه صواب بالمقابلة مع الأشياء الخطأ (غير الصائبة) لكن لاحظ أن الأمر أخطر من ذلك • ألا نحس باليأس عندما لا نستطيع الحكم على الصواب بالمقابلة مع غير الصواب ؟ أى أن الانسان فقد وسيلة امتحان الموضوعات فى هذا المستوى العلوى •

★ المقولات : Catego· ries
وتعنى المفاهيم الأساسية والخواص العامة للأشياء (كالأضلاع والزوايا فى المثلث) كما تعنى العلاقات بين ظواهر الحقائق والمعرفة •

فالمقولات تمكن الانسان من الحصول على المعارف الأساسية عن العالم المحيط به • فالتعرف على الأشياء ليس عملية آلية بسيطة ، لكنها عملية معقدة تحول المعلومات المحسوسة الى المجردة والجزئيات الى الكليات والمظهر الى الجوهر والخارجى الى الداخلى والبسيط الى المعقد •

(المعرب)

ونحن نرى صدى هذه القضية بوضوح فى الروايات السينمائية وقد تحدثت عن ذلك بشىء من الاسهاب فى كتابى « الهروب من الفكر » Escape from reason وفى أماكن أخرى · لكنى أرى أن من واجبى عرض هذا الموضوع لتكتمل الصورة هنا · لذلك سأكرر ما قلتـــه · فالرواية التى قدمها انطونيو بعنوان Blow up مثل حى لما أقول فالشخصية الرئيسية فى هذا الفيلم هى شخصية مصـــور الفيلم فقد ظل يتنقل بلقطاته كانسان محدود يعالج الجزئيات فقط دون أن يقدر أن يضع فى هـــذه الجزئيات أى معنى على الاطلاق · وتســـتمر عدســة آلة التصوير الباردة دون أن تعطى حكما أو أن تتحكم فيمـــا تلتقطه من صور · وانى لأتذكر الاعلانات عن هذا الفيلم اذ كانت تقول « جريمة بلا ذنب ـ حب بلا معنى » أى أنه لا توجد مقولات فى مجال الأخلاق · وهكذا صور أنطونى ضياع المقولات الأساسية ·

ففى مجال الأخلاق لا نجد المطلق الكلى فوق بل نجد الجزئيات · وآلة التصوير تلتقط وتصور لكننا لا نجد الا الجزئيات دون الكليات · هذا هو كل ما يستطيع أن يعمله العقلانى لنفسه ·

واذا عدنا الى اليونانيين فاننا نجد أقدر الناس وقد حاولوا طوال ألفى عام أن يجدوا وسيلة للتأكد من المعرفة وفهم معناها فى عقــــل الانسان · لكن الانسان الذى يبدأ بنفسه بدون أى معـــرفة أخــــرى خارج نفسه يفشل فى ذلك تماما ·

وهذا ما يريد أن يقوله لنا أنطونى فى روايته وقد نجح فى ذلك · والسينما الحديثة ـ ومختلف الفنون الأخرى ـ تريد أن تقول أكثر من ذلك · فهى تريتا أنه ما دامت المقولات الأخلاقية قد ضاعت فان الخسارة الحقيقية ليست فى ضياع هذه المقولات فقط بل فى ضياع كل المقولات الأخرى بما فى ذلك الفرق بين الحقيقة والخيال · وهـــذا ما نراه فى كثير من الأفلام الحديثة ★

والانسان المعاصر حتى ولو لم يتعاط المخدرات فقد التمييز بانتقاله

★ ذكر المؤلف بعض الروايات الحديثة مثل :

Bejje de Joar — Julicr of the Spirits— qm the Bajauce— Rendevous— The hoar op the;Wolf

من المنطقة السفلية فى الفكر • ففى المنطقة السفلية هو مجرد آلة فهو ميت وبلا معنى • لكن ما أن ينتقل الى المنطقة العلوية فانه ينتقل الى منطقة غامضة بلا مقولات يستطيع أن يستخدمها فى التمييز بين عالمه الخارجى وعالمه الداخلى أو أن يميز بين ما فى فكره وما فى العالم الخارجى •

اذا لقد وصلنا اليوم الى الحالة التى نقرر فيها أن الانسان المعاصر ليست لديه مقولات يساعده على التمييز بين الحقيقة وبين ما هو موجود فى رأسه فقط • وكثيرون ممن يحضرون الى بيتنا فى سويسرا (L'Abri) يعانون من ضياع هذا الفرق بين الحقيقة والخيال •

ونحن نجد أربع مقولات متضمنة هنا • ناقشنا ثلاثا منها هى :

(١) المقولة الاخلاقية •

(٢) المقولة الانسانية •

(٣) مقولة الفرق بين الحقيقة والخيال •

أما الرابعة فهى تتعلق بمعرفتنا بالآخرين وسنناقشها فيما يلى :

كانت المقولة الثالثة تتعلق بالانتقال مما هو داخل الفكر الى العالم الخارجى بشىء من اليقين أما المقولة الرابعة فهى عكسها تماما •

كيف يتأتى لشخصين يتقابلان أن يعرف أحدهما الآخر ؟ كيف يتحول كلّ منهما من ما هو خارج فكره الى ماهو داخل فكر زميله ؟ كيف تكون لنا مقولة تساعدنا على الانتقال الى العالم الفكرى لشخص آخر ؟ وهذا ما يؤدى الى اغتراب الانسان المعاصر ، وهذا هو المجهول الغامض الذى يواجه كثيرين من الناس فى عصرنا الحاضر • الشعور بالإغتراب الكلى •

قد ينام زوجان على سرير واحد عشر سنوات أو اكثر لكن كيف يتأتى لكلّ منهما أن يدخل فى فكر الاخر ليعرف عنه أى شىء كشخص لا مجرد آلة تتحدث ؟ من السهل أن نتعرف على المظهر الخارجى لآلة تتحدث لكن كيف يمكنك أن تتخطى اللغة لتعرف الشخص هذا الشخص

المعقد التركيب ؟ هذه مشكلة عامة جدا ـ مشكلة الضياع ٠

لقد ظهرت أمامى هذه المشكلة بوضوح منذ عدة سنوات عندما زارنى زوج وزوجته فى مكان خدمتنا فى (L'Abri) وعندما هيأنا لهما غرفة خاصة فى شاليه ظل الناس الساكنين حولهم يعانون من صوتهما المرتفع ليلة بعد اخرى ٠ فقد كانا يتحدثان طول الليل حتى الصباح ويتكرر ذلك يوميا حتى ضاق بهم كل الناس ٠ ومما اثار اهتمامى ، ترى فيما يتحدثان طول الليل وكل ليلة ؟ ولقد عاشا معنا مدة طويلة لكنهما لم يكفا عن الحديث ترى ما موضوع حديثهما كل هذا الوقت ؟ وعندما تعرفت عليهما اكتشفت اكتشافا غير كل ابعاد فكرى واتجهت الى بعد فكرى جديد ٠ لقد اكتشفت انهما كانا يتكلمان لأنهما يحاولان محاولة يائسة أن يتعرف كل منهما على الآخر ٠ لقد كان كل منهما يحب شريك حياته وكانا يتحدثان ويتحدثان لعلهما يجدان جملة واحدة يفهمانها مفهوما شاملا بنفس المعنى حتى يتعرف كل منهما على الآخر وحتى يستطيع كل منهما أن يصل الى فكر الآخر ٠ لم يكن لهما عموميات (أمور مطلقة) فى عالمهما لذلك حاولا أن يصنعا لنفسيهما مطلقات فى نقطة تلاقى شاملة ٠ لكن لأنهما محددان لم يستطيعا الوصول الى هذا الهدف ٠

اذا كيف تبدأ ولا شيء عندك الا الجزئيات ؟ وان انتقلت الى خارج نفسك فانك لا تثق انه يوجد شيء خارجك وان اتجهت الى الدخول فى فكر شخص آخر فكيف تعرف انك قد لمست حياته ؟ وبهذه الصورة لا وجود الا للانسان وحيدا ولا يوجد شخص آخر يتكلم ٠ صمت فقط ٠ فان كنت لا تستطيع أن تقول جملة شاملة (يتفق الآخرون معك على مضمونها) فكيف تبدأ لا يمكنك أن تبدأ بمجرد أن تعرف شيئا معرفة جزئية ٠ بل لا بد من الشمول لأنه لا يوجد أى شخص آخر فى أى مكان يقدم هذه المعانى الشاملة ٠ فالعموميات واليقينيات لا بد أن تكون موضوع حديثك ولو فى جملة شاملة تبدأ بها ٠

والمشكلة فى مجال المعرفة مركزة فى اللغة ٠ فالانسان المعاصر اما انه متروك فى عالمه السفلى كآلة ينطق بكلمات لا تقدر الى قيم أو حقائق انها مجرد كلمات أو انه موجود فى العالم العلوى بدون مقولات للقيم الانسانية أو الفرق بين الحقيقة والخيال ٠ دعونا نبكى على جيلنا ! الانسان المخلوق على صورة الله والمفروض فيه أن يكون على علاقة

راسية بالاله الذى هناك ـ الاله غير الصامت ـ وعلى علاقة افقية ببنى جنسه وصل الى هذه الحالة نتيجة كبريائه الفكرى واعتقاده انه خالق نفسه ٠

واختم هذا الفصل بالاستشهاد بجزء من فيلم Satyricon لمخرجه فيلينى Fellini فقد ظهر قرب نهاية الفيلم رجل ينظر الى زميله وهو يمـــوت موتا غريبا أو ان جاز أن نسميه موتا مضـــحكا غامضا ٠ مات هذا الرجل بكل ما فى حياته من امل تلك الميتةالغامضة٠ الانسان المعاصر المخلوق على صورة الله والذى قصد به أن يكون على علاقة بالهه وببنى جنسه وصل الى ذلك المكان حيث السكون المطلق ٠ ولقد جعل المخرج هذا الانسان ينطق بالكلمات الآتية :

« يا الهى ٠٠٠ ما أبعد هذا الانسان الراقد عن أهدافه الآن ٠٠ »

ما أصدق هذه الكلمات ٠٠

الفصل الرابع

الضرورة المعرفيـــة

أو

الحـــــل

هناك حل مسيحى لمشكلة المعرفة • فاذا بدانا بالعودة الى عصر النهضة فستذكر أن النهضـــة واجهت مشكلة الطبيعة والنعمـــــة والعقلانية والانسانية • ولم يتمكن الفلاسفة من ربط الطبيعة بالنعمة ومن ثم لم يتوصلوا لحل لهذه المشكلة • وحيرة العصر الحديث ترجع الى هذه المشكلة • فالعقليون والانسانيون مع كل ما أوتوا من ذكـاء وفطنة لم يتمكنوا من التوصل الى طريقة لربط الطبيعة بالنعمة • لـكن فى هذا الوقت بدأ عصر الاصلاح ولم يواجه الاصلاح هذه المشكلة بين النعمة والطبيعة • وهذا هو الفرق الهائل • فمشكلة الطبيعة والنعمـــة نبتت منعقلانية وانسانية عصر النهضة ولم تحل هذه المشكلة • ولا نزعم أن المسيحية كانت تعانى من هذه المشكلة قبل عصر الاصلاح حتى جاء المصلحون وعالجوا المشكلة وتوصلوا الى حلها • لا ، بل ان مشكلة الطبيعة والنعمة لم يكن لها وجود عند المصلحين ، لأنهم كانوا يعتمدون على كلمة الله وهى الاعلان اللفظى★ للانسان فالمسيحية لا تعانى من هذه المشكلة ، مشكلة التناقض بين الطبيعة والنعمة لأن الاعلان الالهى اعلان لفظى •

ولقد وصلنا فى جيلنا الحاضر الى مركز المشكلة اللغوية • لقـد ناقشنا استخدام هيدجار فى أخريات حياته للغة كما ناقشنا استخدام

★ Propositional وقد ترجمته لفظى الا أنه يعنى أكثر من ذلك فهو يعنى اعلان قضية من القضايا أو خبر من الأخبار فهو اعلان خبرى لفظى •

(المعرب)

ويتجنشتين للغة وفلسفة التحليل اللغوى لكن هناك فرق بينهما • فقد تحقق كل من هيدجار وويتجنشتين من لزوم وجود شيء منطوق لفظى ان كنا نريد أن نعرف لكنهما لم يتوصلا الى شخص يتكلم • فالمشكلة بسيطة لكنها عميقة تتلخص فى السؤال : هل يوجد من يتكلم ؟ أم أننا كأشخاص محدودين نكتفى بجمع حقائق وجزئيات كافية لمحاولةتكوين العموميات الخاصة بنا ؟

وفى عصر الاصلاح خاصة ، وفى اليهودية والمسيحية على وجه العموم ، نجد شخصا يتكلم • وقد حدثنا هذا الشخص فى اتجاهين • حدثنا أولا عن نفسه حديثا ليس شاملا لكنه حديث صادق حقيقى • وحدثنا ثانيا عن التاريخ والكون لا حديثا شاملا بل حديثا حقيقيا • وبحديثه فى هذين المجالين حديثا خبريا لفظيا اعلانيا لم تظهر مشكلة الطبيعة والنعمة فى عصر الاصلاح • بل ظهرا متحدين لأن الاعلان الالهى تحدث فى المجالين فتلاشت المشكلة • ان كانت العقلانية لم تجد الحل لكن الله المتحدث هو الذى أوجد الارتباط بين طرفى هذه الثنائية : الطبيعة والنعمة •

وهذا يقودنا الى سؤال أساسى : هل الوضع الكتابى ممكن عقليا ؟ هل يمكن أن يوجد التكامل العقلى رغم تمسكنا بالاعلان الخبرى اللفظى ؟

واذ أجيب على هذا السؤال اقول انه غير ممكن ان كنت تتمسك بنظرية العلمية الطبيعية الجامدة★ فان كنت ممن يعتنقون هذه النظرية فان الاعلان الالهى يصبح خرافة • فهو لا يحتوى فقط على بعض المشكلات لكنه يصبح خرافة كاملة لأن كل شيء يصبح آليا • وسواء

---

uniformity of natural causes in a closed system

والعلية مقولة فلسفية هامة • تعنى علاقة بين ظاهرتين احداهما علة الأخرى • اى أن الأولى تحدد الثانية وتؤدى اليها وتسمى الثانية النتيجة • الا أن هذه النتيجة يمكن أن تكون علة لظاهرة أخرى وهكذا

وفى الفلسفة المادية تتحول هذه العلاقة الى علاقة آلية بحتة وهذا ما يقصده المؤلف هنا •

(المعرب)

بدأت بنظرية طبيعية فى الفلسفة أو فى اللاهوت فلا فرق ٠ فاللاهوتيون المتحررون لا يمكن أن يفكروا فى اعلان الهى خبرى حقيقى ٠ ولايجاد حل لهذه المشكلة فان البحث فى التفاصيل لا يوصل الى نتيجة لكن المهم هو مواجهة المشكلة الكبيرة موضوع الافتراضات السابقة ٠ فان كنت ممن يعتقدون اعتقادا جازما فى العلية الطبيعية المغلقة فسواء عبرت عن نفسى بتعبيرات فلسفية أو دينية فان موضوع الوحى الالهى اللفظى أو المعرفة التى تصل الى الانسان من الله مرفوضة تماما ولا يمـــكن التفكير فيها ٠ وذلك لأنه من التعريف الأساسى نجد كل شىء آليا فلا وجود لمعرفة تاتينا من الخارج أى من الله ٠

ان كان هذا رأيك — وانت ترفض أى رأى آخر — حتى ولو أدى الى سلب الانسانية من الانسان أو حتى لو كان مناقضا لكل الحقائق التى نعرفها عن الانسان فقد وصلت الى طريق مسدود ٠ ولن يمكنك التمسك بنظرية العلية الطبيعية الجامدة المغلقة — وهو الرأى الشائع الآن — الا اذا أنكرت ما يعرفه الانسان عن الانسان ٠ واذا تمسكت بهذه النظرية حتى ولو سلبت الانسان انسانيته أو عارضـــت كل البراهين عمـــا يعرفه الانسان عن الانسان فيجب أن تتأكد أنه لا مجال للاعلان اذا بل ان تمسكت بنظرية العلية الطبيعية الجامدة معارضا كل البراهين (وأنا مصمم أنها ضد كل البراهين) فلن تستطيع أبدا أن تدرس الفرض الآخر الذى كان العلة الحقيقية التى أبدأت العلم الحديث الا وهو نظرية العلية الطبيعية المحدودة وهى النظرية التى تحتمل اعادة التنظيم بواسطة الله أو بواسطة الانسان ٠

وفى علم الانثروبولوجى (أى علم الانسان) وهو علم عام لا شأن له بالدين فكرة طريفة تقول ان الفرق بين الانسان وغيره من الكائنات هو اللغة ٠

كان الفكر السائد قديما ان الانسان هو صانع الأدوات ٠ فمتى رأيت كائنا يصنع أدواته بنفسه فلا بد أنه انسان ٠ ولكن هذا الرأى لم يعد صحيحا ٠ والفرق الآن هو اللغة ٠ فعالم الانثروبولوجى يقرر انه ان أردنا أن نميز بين الانسان وسائر المخلوقات فان الفارق الحقيقى هو فى اللغة وليس فى صنع الأدوات ٠ فالكائن الناطق هو الانسان وغير الناطق ليس انسانا ٠

اذا فقد استنتجنا أن ما يجعل الانسان انسانا هو الكلام · ونحن ننقل أفكارنا الى الآخرين عن طريق الكلام ـ سواء المنطوق أو المكتوب ـ على هيئة لغة بل ان الأمر أعمق من ذلك : فاننا عندما نفكر تفكيرا صامتا فى عقولنا فاننا نفكر باستخدام اللغة · وقد تحوى عقولنا أشياء أخرى بجانب اللغة لكن كل هذه الأشياء مرتبطة باللغة · وقد يحتوى كتاب ما على صور بلاغية مختلفة ، لكن هذه الصور البلاغية يجب أن تكون لها علاقة مستمرة بالاستخدام العادى للتعبيرات المختلفة والا فلن يفهم أحد شيئا عن محتوى هذا الكتاب لذلك فسواء كنا نتكلم عن الاتصال الخارجى بالآخرين او التفكير الداخلى فالانسان يستخدم اللغة ·

والآن لندرس هذه المناقشة من وجهة نظر غير مسيحية أى من وجهة نظر انسان يؤمن بنظرية العلية الطبيعية بطريقة جامدة · هذا الانسان يعتبر مفهوم الوحى (وخصوصا الوحى اللفظى) مجرد هراء · والسؤال الذى يجول بخاطرى دائما كلما فكرت فى هذه النظرية (العلية الطبيعية الجامدة) هو : هل هذه النظرية قابلة للتطبيق فى ضوء ما نعرف ؟ وأنا أؤكد انها غير قابلة للتطبيق لأنها تفشل فى تفسير الانسان كما تفشل فى شرح وتوضيح نظام الكون · وهى تفشل أيضا فى مجال فلسفة المعرفة ·

وواضح أن الوحى اللفظى غير ممكن على أساس نظرية العلية الطبيعية لكن المناقشة كلها تصبح صحيحة أو لا محل لها فى ضوء الاجابة على هذا السؤال : هل نظرية العلية الطبيعية مقبولة فعلا ؟

وسأناقش هل هذه النظرية مقبولة أو حتى معقولة ، لا على أساس الايمان المسيحى ، بل على أساس ما نعرفه عن الانسان والكون الحالى ·

ان المسيحية تقدم مجموعة من الفروض تختلف تماما عن غيرها من الفروض التى لا تفى بالغرض ·

وبهذه المناسبة يجب أن نحترس عند استخدام لفظ فرض ففى انجلترا عندما يستخدمون لفظ افتراض Presupposition فانهم يواجهون صعوبة لأنها تعنى عندهم شيئا أنت غير واثق من حيازته · لكننى عندما

أستخدم هذه الكلمة فانا أعنى بها شيئا آخر · اذ أعنى الأساس الذى أمتحنه وأقبله أو أرفضه · وكثيرون يعتمدون فى تكوين فروضهم على العائلة أو المجتمع دون أن يعرفوا هذه الفروض وهذا خطأ ·

وأنا أحث النـــاس على مناقشة فرضين أساسيين : العليـــة الطبيعية الجامدة والعلية الطبيعية المرنة open System فى فترة زمنية محدودة · وعلينا أن نختار من هذين الفرضين ما يناسب الحقائق · والمسيحية لها مجموعة مختلفة من الفروض · فهى تبدأ بالاله الموجود ، الاله الذات غير المحدود ، الاله الذى صنع الانســـان على صورته · وقد صنع الانسان متكلما ليستخدم اللغة فى الاتصال بالناس· وعلماء الأنثروبولوجى يقولون انهم لا يعرفون لماذا يصنع الانســـان اللغة ويستخدمها · فالانسان مختلف والكتاب المقدس والمسيحية تقول: « أنا أستطيع أن أقول لك لماذا؟ ذلك لأن الله ذات غير محدود » لقد وجد الاتصال بين الأقانيم قبل الخليقة · وقد صنع الله الانســـان على صورته · وجزء من هذه الصورة ان الانسان يكون قادرا على استخدام اللغة وهذا جزءمن الوحدة المسيحية المتكاملة ·

والآن لنسأل أنفسنا هذا السؤال : فى هذا الاطار المسيحى ، هذا الاله الشخصى الموجود والذى صنع الانسان على صورته متحدثا حتى يستطيع أن يتعامل على المستوى الأفقى مع بنى جنسه وليتخابر معهم باستخدام اللغة ، هل من غير المعقول أو حتى من العجيب أن هذا الاله الشخصى يستطيع أن يمارس الاتصال بالانسان عن طريق التخابر ؟ والجواب المنطقى لا طبعا · أنا شخصيا لم أتقابل مع أى ملحد جال بخاطره أن هذا غير ممكن فى الاطار المسيحى · بل على العكس فان هذا هو المتوقع·اذا ان كان الله قد خلقنالنتعاملمعا باستخدام اللغةوأعطانا امكانية التخابر وتبادل الحقائق فلماذا نظن أنه لا يتصل بنا ليخبرنا لغويا أيضا ؟ فى ضوء الاطار المسيحى الكلى فان هذا ممكن جداومعقول أيضا فالاعلان الخبرى ليس عجيبا ـ ولا نقول لا يمكن التفكير فيه ·

لقد صنعنا الاله الشخصى لنتحدث معا باستخدام اللغة فان كان الله الذات قد صنعنا لنستخدم اللغة كوسيلة اتصال ـ كما يفعل الناس ـ فلماذا نعتبره عجيبا أن نفكر فى الله الذى كلم شاول باللغة العبرية

فى الطريق الى دمشق ؟ لماذا نتعجب ؟ هل نعتقد ان الله لا يعـــرف العبرية ؟ وعلى نفس المستوى نقول ان كان الرب طيبا فلماذا نعجب اذ يتصل بالانسان مستخدما اللغة ليخبرنا عن الحق الحقيقى فى كـــل المجالات التى يتحدث فيها ؟★

ان هذا الأمر يبدو عجيبا لمن قد تشبع بالفروض المسبقة عن العلل الطبيعية الجامدة . وفى ضوء هذه الفروض يبدو الأمر مستحيلا .

لكن الموضوع ـ كما شرحته ـ هو اى الفرضين يثبت حقــا وتجريبيا ازاء الحقائق التى نراها حولنا فى العالم .

اذا فقد توصلنا الى أن الحل مبنى على استخدام اللغة فى الاعلان ان المسيحية لا تعانى من مشكلة التناقض بين الطبيعة والنعمة . ومن المدهش حقا ان شخصيتين عظيمتين مثل هيدجار وفتجنشتين ، فى مجال فلسفة المعرفة المعاصرة ـ توصلا الى أن الحل يكمن فى مجـــال اللغة لكنهما لم يتوصلا الى وجود الاله الذى يتحدث .

ان المسيحية لا تعترف بالمشكلة بين الطبيعة والنعمـــة . ولكنى اضيف بكل وداعة أيضا أن المسيحية ليست لديها أى مشكلة فى مجال المعرفة أيضا هل تذكر الفصل الثالث وما قلناه عن معاناة الانســان المعاصر فى مجال المعرفة والظلام المطلق فى هذا المجال ؟ أما بالنسبة للمسيحى فلا توجد مشكلة فى ميدان المعرفة كما انه لا مشكلة فى ميدان الطبيعة والنعمة . ليس لمجرد أنه تصادف وجود حل لهذه المشكلة ، بل لأن المشكلة غير موجودة أصلا فى البنيان المسيحى .

ولنكن واضحين فى بيان سبب عدم وجود مشــكلة فى البنيـــان المسيحى ، فمن وجهة النظر المسيحية يجب أن نعود فنتمسك بما قاله اوبنهيمر وهويتهيد عن مولد العلم الحديث . ودعونى أذكركم بما قلته فى فصل سابق . لقد قال أوبنهيمر وهويتهيد انه لولا المسيحية لما أمكن

★ سنتحدث باسهاب فى هذا الموضوع عن الوحى الالهى اللفظى فى الملحق رقم (١) هل الاعلان الالهى غير صحيح ؟

أن يولد العلم الحديث ٠٠ لماذا ؟ لأن جاليليو وكوبرنيكوس وكيبلر وفرنسيس بيكون وغيرهم حتى نيوتن وفاراداى فهموا أن الكون موجود لأن الله صنعه • ولقد آمنوا ــ كما عبر عن ذلك هويتهيد تعبيرا جميلا ــ أنه لأن الله حكيم فان الانسان يستطيع أن يكتشف حقيقة الكون بواسطة العقل والحكمة • وهكذا ولد العلم الحديث • لقد كان لدى اليونانيين كل الحقائق التى كانت لدى العلماء الأوائل تقريبا لكنها لم تتحول الى علم لأنهم لم يؤمنوا كما آمن هؤلاء العلماء (كما يقول هويتهيد) بأن حقيقة الكون يمكن الوصول اليها بالعقل لأن صانع هذا الكون هو الاله الحكيم •

وكما أكدت مرة ومرات ، فأنا لا أعتقد للحظة واحدة انه لو أن الناس فى تلك المرحلة المتقدمة من التاريخ كانت لهم نفس فلسفة المعرفة التى للانسان المعاصر ، لما ولد العلم الحديث بل انى أعتقد ان العلم سينتهى ونهايته وشيكة كما أعتقد أنه سينحصر فى شيئين فقط : مجرد تكنولوجيا ــ وممارسة لعلم الاجتماع★ • فأنا لا أعتقد ولو للحظة ان العلم يمكنه الاستمرار بأهدافه ما دام الأساس الذى بنى عليه العلم قد انهار • لكنى واثق من شىء واحد : ان العلم ما كانت لتقوم له قائمة لو كان لدى الانسان عندئذ نفس الشك الذى يعانى منه الان فى مجال المعرفة فما كان ممكنا البدء بثقة فى الخطوات الأولى التى خطاها أولئك العلماء •

فاذا نقلنا هذا الفكر الى المعرفة فاننا نجد نفس الحالة • لقد كان اعتقاد العلماء الأول فى ذات الله غير المحدود لا كفكرة مجردة بل ذات صنعت كل الأشياء هو سبب ثقتهم فى الوصول الى تفسير للكون• فالاله الموجود صنع الكون وكونه بشكل منتظم وبعلاقات ثابتة • وحول فكرة وجود الله الذى خلق الكون متآلفا متماسكا فيه علاقات ثابتة تدور كل مجالات العلم •

وهكذا صنع الله الكون الخارجى الذى جعل العالم ممكنا لكنه

★ لقد شرحت هذا الموضوع فى كتابى : الكنيسة فى نهاية القرن العشرين •

صنع أيضا الانسان وجعله يسكن هذا الكون · لم يصنعه ليسكن أى مكان آخر · لذلك نرى ثلاثة أشياء معا :

- الله ، الذات الالهية غير المحدودة ، الذى صنع الكون ·
- والانسان المخلوق ليعيش فى الكون ·
- والكتاب المقدس الذى أعطاه لنا ليخبرنا عن الكون ·

فهل نندهش لوجود وحدة بين هذه الثلاثة ؟ ولماذا نندهش ؟

اذا لقد خلق الكون ، كما خلق الانســـــان ليعيش فى الكون ثم أعطانا الكتــاب الاعلان الخبـــرى اللفظى الحقيقى ليخبرنا عن كل ما نريد معرفته · وفى الكتاب المقدس لا يخبرنا فقط عن الأخلاق التى تمكننا من الحياة حياة أخلاقية حقيقية بدلا من العرف والعادات السائدة ، لكنه يعطينا فهما نستطيعبه ربط معلوماتنا · والسبب فى عدم وجود مشكلة المعرفة عند المسيحى هو نفس سبب عدم وجود مشــــكلة بين الطبيعة والنعمة · فنفس الاله الحكيم صنع شيئين : ما نعـرف ومن يعرف · الموضوع والذات ووحدهما معا · لذلك فليس غريبا ان وجدنا ارتباطا بين الاثنين أليس هذا ما نتوقعه ؟

ولأن العلم الحديث بدأ على أساس وجود اله حكيم ، لذلك يمكن التوصل الى نظام الكون بالعقل · هل نندهش ان وجدنا ارتباطا بين العالم الذى يبحث عن المعرفة وبين موضوع المعرفة ؟ لا بل ان هذا عين ما يجب أننتوقعه بل لأننا نؤمن بالاله الحكيم الذى صنع الاثنين فلابد من وجود ارتباط معقول بين الذات والموضوع ·

وفى الفصل السابق ان ما يحير الانسان المعاصر ويجعله يخشى الظـــلام الكلى ، انه لا يستطيع أن يتحقق من العـــــلاقة بين الذات والموضوع · أما الوضع المسيحى فيبدأ من منطلق افتراضات مختلفـة تماما · فالمسيحية ترى سببا للارتباط والعلاقة بين الذات والموضوع ومن العجيب أن هذا الارتباط ليس مناقضا للخبرة الانسانية بل هـــو

اختبار كل الناس · فلو كان هذا الارتباط مجرد فكر دينى غامض يقدمه لنا شخص بطريقة بعيدة كل البعد عن الحقيقة وبدون اية وسـيلة لاختباره اختبارا موضوعيا لكان مجرد وهم ولا يهمنا مدى عـدم الارتباط فى الفلسفة النظرية للشخص مادام يعيش فى الواقع كما لو كان هناك ارتباط بين الذات والموضوع · هل تذكر الفيلم الذى اخرجه جودارد godard ؟ لقد وضح لنا أن الانسان يمكنه أن يخرج من النافذة بدلا من الباب ، لكنه لا يمكن أن يخرج من الجدران الصلبة ·

والحقيقة ان كنا سنحيا فى هذا العالم فيجب ان نحيـا ونحن مرتبطون ارتبـاطا كاملا بالأشـياء الموجودة حتى ولو اعتنقنـا فلسفة تنادى بأن الارتباط غير موجود · وبدون ذلك لا يمكن أن نحيا فى العالم وعلى سبيل المثال نجد أن كل الناس يحبـون حتى ولو أنكروا وجود ما يسمى بالحب · وكل الناس عندهم وازع أخلاقى حتى ولـو أنكروا وجود هذا الوازع ، وكل الناس يتصرفون كما لو كان هنـاك ارتباط بين العالم الخارجى والعالم الداخلى حتى ولو لم يكن لديهم أى أساس لهذا الارتباط ·

لذلك فانى أرى أن النظرة المسيحية تتوافق تمـاما مع الخبرة الانسانية ، ولا يوجد نموذج آخر خلاف هذا النمـوذج الموجود فى اليهودية والمسيحية (الذى نراه فى العهدين القديم والجديد) يمكن ان يفسر لنا سبب الارتبـاط بين الذات والموضـوع ، بحيث يتحتم على الانسان التصرف على هذا الأساس · فكل انسان يتصرف ــ أو بالحرى يجب أن يتصرف ــ طبقا لذلك · ولا يوجد نظام آخر يدلنا على سبب الارتباط · وبلغة أخرى فكل الناس يتصرفون دائما وبانتظام باعتبار أن المسيحية حقيقة ·

لنرجع الى الفكرة العامة ــ التى سبق الاشارة اليها ــ أن الانسان العصرى ينادى بأن الحب غير موجود وان كل ما نراه هو مجرد جنس لكن هذا الانسان نفسه يقع فى الحب · الناس يقولون بأنه لا وجـود للعواطف العـادية وان كل أفعالنا غرضية آلية ، لكنهـم بلا استثناء يشعرون بتلك العواطف · وحتى فى المجالات الأعمق مثل المعرفة ليست العبرة بما يقول الانسان انه يعتقد فيه ، اذ أنه فى كل لحظة يتصرف باعتبار أن المسيحية حقيقة ، وان النظام المسيحى هو الوحيد الـذى

يعرفه لماذا يستطيع أن يتصرف (أو يجب أن يتصرف) بالطريقة التى يتصرف بها • ولا طريق آخر •

ولو الانسان يختلف عن باقى المخلوقات لأنه مخلوق على صورة الله ـ له شخصية ويتمتع بانسانية ـ لكنه على أى حال مخلوق كسائر المخلوقات وعلى هذا المستوى فهو متساو مع كل المخلوقات اذا فمع أننا نختلف عن سائر المخلوقات لأننا نتميز بالشخصية الا أننا نتساوى معهم من حيث أننا جميعا مخلوقات ولأن الله صنعنا جميعا بهذه الكيفية •

اذا قرأت التطبيق الذى قدمته فى كتابى (التلوث وموت الانسان Polution and the Death op Mau تحت عنوان النظرة المسيحية لعلم البيئة فسترى كيف شرحت هذه النقطة • فى مجال علم البيئة قلت ان النظرة المسيحية ـ كما أراها ـ هى أننا ما دمنا نتساوى مع باقى المخلوقات ، فيجب أن نتعلم كيف نتعامل مع النباتات والحيوانات والهواء بطريقة صحيحة • فهل نخطو الآن خطوة أخرى فى مجال المعرفة فنقول ان الحيوان المخلوق مثلى هو الموضوع وأنا الذات ، وقد صنعنا نفس الاله الحكيم ، لذلك فانا أعرف المخلوقات حق المعرفة • وفى علم البيئة يجب أن أعامل هذه المخلوقات معاملة حسنة بحسب الطريقة التى صنعها بها الله فلا أفسدها • لكن الفكرة أعمق من ذلك ، فلا يقتصر الأمر على مجرد المعاملة الحسنة بل يجب أن أفهم جيدا أنها مخلوقات نظيرى •

وفى علم المعرفة نقول ان الشىء موجود لأن الله أوجده • وهذا الشىء ليس امتدادا لجوهره وليس مجرد وهم من الأوهام ـ كما يرى عدد كبير من الشرقيين لكن الشىء موجود وجودا حقيقيا • ولا نعجب ان وجدنا علاقة بين المشاهد وبين موضوع المشاهدة لأن الله صنعهما كليهما • لقد صنعهما نفس الاله وفى نفس الاطار • لذا فالمسيحى لا يجد مشكلة فى مجال المعرفة • وكل انسان يتصرف على أساس هذه الحقيقة مهما كانت فكرته أو فلسفته فى مجال المعرفة • فالمسيحى لا يندهش لوجود شجرة ولا يعجب لأنه لا يستطيع اختراقها والسير من خلالها لأنه واثق من وجود الشجرة •

والآن ، على كل انسان أن يواجه هذه الحقيقة ، سواء أكان هذا الانسان عالما مفكرا ممن يمقتون المسيحية ، أو كان انسانا بسيطا

يتصرف كما لو كانت المسيحية حقيقة ويتصرف على هذا الأساس دون مناقشة • الى كل من هذين الصنفين من الناس يقول المسيحى : ماذا تتوقع ؟ هذا أمر طبيعى لأن الاله الحكيم صنع الاثنين الموضوع والذات فقد خلق الذات كما خلق الموضوع وأعطانا الكتاب المقدس لنعـــرف ما نحتاجه من معرفة •

عندما هاجم ميخائيل بولانى الفلسفة الوضعية وحطمها كمـــا أوضحنا فى فصل سابق ، لم يصل الا الى الشك • لكن المسيحى لايعانى من الشك فى علاقة الذات والموضوع لأن نفس الاله صنع الاثنين • لذلك فالعلاقة بين الاثنين لا تعتبر مفاجأة للمسيحى •

يبقى سؤال يجب أن نتناوله فى هذه النقطة ، وهو كيف ننظر الى مشكلة مدى دقة المعرفة • وكل هذه الأشياء تتعلق باللغة التى تقـــدم لنا الموضوع العصرى عن التحليل اللغوى لا كفلسفة بل كوسيلة ويمكننا فى بعض النقط أن نعتبر التحليل اللغوى وسيلة نافعة ، ان كنا نستطيع أن نرفضها ـ بطريقة واعية ـ كفلسفة عقلية • وفى الحقيقة فان العلاقة بين الذات والموضوع وبين مشكلة اللغة علاقة حقيقية قوية •

والآن علينا أن نتحقق من وجود ثلاث أفكار محتملة فى موضوع اللغة :

الفكرة الأولى اننا عند استخدامنا لأى كلمة أو أى جملة ننطق بها فاننا نتأثر بالخلفية الخاصة بها backgrouud وهذا يؤدى الى عدم التفاهم بيننا تفاهما مطلقا لأن خلفياتنا تؤثر على كلماتنا وجملنا حتى اننا لا نلتقى •

أما الفكرة الثانية فترى أننا بمجرد أن نستخدم اصطلاحا معينا فى هيئة كلمات فان كل انسان سيفهم المقصـــود بطريقة كاملة شاملة متعارف عليها ، ، لأننا جميعا نستخدم نفس الكلمات •

وهنا نجد أنفسنا بين طرفى نقيض لكن كلا من الفـــكرتين غير مناسب •

فلا الفكرة الأولى التى تقول بأن خلفياتنا تجعل كلماتنا غيــر متعارف عليها فلا نلتقى ، ولا الفكرة الثانية التى تقول بأن الكلمات لها معنى واحد شامل متعارف عليه صحيحة • فكلتــاهما لا تفسران ما يحدث فى اللغة • اذا ما هى الحقيقة ؟ وكيف نتعامل باستخدام اللغة فى العالم؟ من المؤكد أننا نجد أنه بالرغم من تأثرنا بخلفياتنا فى اللغة فتتلون كلماتنا بلون خلفياتنا الا اننا نلاحظ وجود نوع من التوافق بين العالم الخارجى والخبرة الانسانية تؤكد لنا امكان التفاهم والاتصال بالآخرين مع اننا لا نصل الى المعنى الشامل لنفس الكلمة • بمعنى آخر فان كلماتنا تتوافق وان كانت لا تتطابق تماما وهذه هى الطريقة التى نتعامل بها فى مجال اللغة • والمثل الذى أقدمه لتوضيح هذه الفكرة هو كلمة « شاى » فهذه الكلمة تعنى فى لغتنا مشروبا معينا • لكن زوجتى التى ولدت فى الصين كان لها خبرة معينة مع الشاى • فقد تعلمت من الصينيين شيئا لا زالت تتذكره حتى الآن وهو كيف تشرب الشاى من طبق كبير بينما يكون فمها مملوءا بالأرز الذى تضعه فى أحد جوانب فمها تحت خدها ثم تشرب الشاى دون أن يلمس الأرز • كل هذه الصــورة ما زالت مرتبطة فى ذهنها بكلمة شاى • أما بالنسبة لى فان كلمة شاى تذكرنى بالخبرة التى أخذتها من أمى فى احدى مدن فيلادلفيا • فقد كانت تصنع لى الشاى بطريقة تختلف عن الطريقة المألوفة الآن • فقد كانت تضع الشاى فى مصفاة صغيرة من الألمونيوم تسقطها فى الماء الســاخن • وما زالت هذه الصورة مرتبطة فى ذهنى بكلمة شاى •

اذا فكل منا عنده صورة خاصة ترتبط بالكلمة • لكن هل يخطر ببالك لحظة أنه بسبب اختلاف المضمون بينى وبين زوجتى أو اختلاف الصورة المنعكسة من خلفياتنا اننى عندما أقول لزوجتى « هل تسمحين لى يا عزيزتى باناء الشاى » فانها لا تأتى به فأسألها « هل فهمت ما قلته ؟ » ان كنت ممن يعانون من فلسفة اللغة والتحليل اللغوى فتذكر هذا دائما • ابتعد عن طرفى النقيض ، واعلم أنه يوجد توافق فى عالمنا الخارجى وفى خبراتنا الانسانية المشتركة •

هذا الكلام صحيح بالنسبة للغة كما أنه يجب أن يتأكد صــدقه بالنسبة للمعرفة أيضا • ولسنا فى حاجة أن نختار بين طرفى نقيض متباعدين سواء فى اللغة أو فى المعرفة فنحن نستطيع أن نعرف معرفة

حقيقية دون أن نعرف معـــرفة شاملة • وما دام الشيء موجودا وأنا موجود وهناك ارتباط بيننا فلا داعي للمعرفة الشاملة اذا •

واخيرا فلا نستغرب أننا نصل الى الحقيقة لأنه لا يوجد انســـان يعرف معرفة شاملة الا الله ولا سواه •

وهكذا نلاحظ انه يوجد توافق كاف يسمح لنا بالتفاهم مع الاخرين ولسنا فى حاجة الى المعرفة الدقيقة الشاملة عن شيء مادام هـــذا الشيء موجود وأنا موجود ويوجد ارتباط بيننا • وفى ضوء الخلفيـــة المسيحية نجد اننا جميعا خليقة الله نعيش فى هذا العالم • وعنـدما نستخدم كلمات مثل « منزل » أو « كلب » فانها كلمات ليست شاملة أو دقيقة عند استخدامها بين شخصين كما أن كل واحد منهما قد يكون متأثرا بتأثيرات شخصية ومع ذلك فهما يستطيعان أن يتفاهما بطريقة دقيقة ولكنها غير شاملة •

ولا نستغرب ان كان الأمر صحيحا بالنسبة للمعرفة ــ لا عند مجرد سماع كلمة ــ بل فى العلاقة بين الذات والموضوع •• ولا نعجب ان كنا لم نعرف الموضوع معرفة شاملة ولكننا نعرفه بصدق

ان كان نفس الاله قد صنع الذات والموضوع فلا غرابة ان توجد علاقة بينهما •

اذا فقد وجدنا ان المسيحية لا تعانى من مشكلة المعرفة أبدا • وفى العصور القديمة عندما كان الناس متأثرين بالأساس المسيحى لم تحدث أبدا مناقشة حامية متوترة فى موضوع المعرفة كما يحدث اليوم • درس الناس العديد من هذه الأسئلة بتفاصيلها لكن لم توجد المشاكل المنتشرة هذه الأيام • ولعل أساس المشكلة الحديثة ان الانسان انتقل من نظام العلة الطبيعية المرنة التى تسمح لله او الانسان باعادة تنظيمها الى نظام العلة الطبيعية الآلية الجامدة • ولذا فان فلسفة المعرفة تندثر • اما اذا اتبعنا الأساس المسيحى فلن يكون فى الأمر مشكلة •

وما هى النتيجة ؟ هناك نتائج ثلاث :

أولا : ها أنا موجود ، أتطلع للخـــارج • ولو أن هذه جمـــلة

بسيطة لتوضيح الفكرة لكنها تمثل المشكلة الحقيقية فى المعرفة ٠ كيف أحصل على قدر معين من المعرفة أو كيف أصل الى المعرفة عامة أو كيف أعرف أنى أعرف ؟

ثانيا : كيف أميز بين تعرفى على شىء موجود وبين الهلوسة أو الصور المضللة الخادعة ؟

ومن الواضح أنه توجد حالات تقع على الحد الفاصل بين السوى والمريض فاصابات المخ ومرض الفصام وبعض الأمراض العقلية الأخرى قد تجعل الفرق بين الحقيقة الموضوعية وبين الخيال غير واضح ٠ كما أن تعاطى المخدرات قد يؤدى الى نفس الشىء ٠ وسواء أكان مرضـــا نفسيا أو فصاما مؤقتا نتيجة تعاطى المخدرات فان المسيحى يرى فى تلك المشكلة نتيجة طبيعية للسقوط ٠ فالأمور لا تسير وفق الطريق الذى رسمه الله ٠ فهناك اغتراب بين الانسان والله وبين الانسان ونفسه وبين الانسان والطبيعة ٠ كل هذا نتيجة السقوط ٠ لذلك لا نستغرب اذ نجد حالات على الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال ٠

والمسيحى له حالة تختلف تماما عن حالة الانسان المعاصر ٠ فلو تأملنا رواية أنطونيونى Blow up نجد أن المسيحى عنده الثقة منذ البدء فى وجود عالم خارجى خلقه الله وهذا العالم موضوع حقيقى ٠ وهذا يختلف عن الانسان الذى لا يعرف من أين يبدأ أو غير الواثق من وجود أى شىء ٠

ومشكلة الفلسفة الوضعية كما شرحتها أنها تفترض البدء بدون أى معلومة سابقة تدل على وجود أى شىء ٠ أما المسيحى فهو لا يقف هذا الموقف لكنه يعرف أن الأشياء موجودة لأن الله خلقها ٠ ولعـــل السبب فى أن الشرق لم ينتج علما خاصا به أن الفكر الشرقى لم يكن متأكدا من الوجود الموضوعى للحقيقة ٠ وبدون العالم الخارجى فلا وجود الموضوع للبحث العلمى ٠ ولا أساس للتجريب أو الاستنتاج ٠ أما المسيحى فلأنه متأكد من الحقيقة ـ أى وجود عالم خارجى ـ فانه يجد أساسا للمعرفة الحقيقية ٠ ومع اعترافنا بأننـــا نعيش فى عالم ساقط فيه الحالات الشاذة والحالات التى تقع على الخط الفاصل بين السوى والشاذ الا أن المسيحى لايقع فى المشكلة التى عالجها أنطونيونى فى فيلمه Blow up.

وليس ذلك فقط ، بل ان المسيحى يستطيع فى العالم الذى خلقه الله وهذا هو الفرق الأساسى بين العلم والخيال العلمى · فالعلم يجب أن يوجد فى عالم موجود لا ينفصل عنه ·

لانستغرب اذا ان كان الاله الحكيم الذى خلق العالم ووضعنى فيه ، جعل علاقة وارتباطا بين المقولات التى فى عقلى وبين ما هو موجود فى العالم ، لسبب بسيط هو انى أعيش فى هذا العالم · وهذه نتيجة طبيعية للنقط التى أثرتها سابقا ، فما دام العالم قد خلق بالطريقة التى ذكرتها الديانات اليهودية والمسيحية ، فلا نستغرب ان كان في عقل الانسان مقولات تتوافق مع العالم الذى يعيش فيه ·

هناك دراسات كثيرة هذه الأيام عن موضوع انتظام المقولات فى العقل الانسانى · قام بهذه الدراسات علماء مثل كلود ليفى ستراوس Claude levy Strauss أو نوعم كومسكى Noam Chomsky فى دراساته عن أساسيات علم النحو وجد هؤلاء العلماء أنه توجد - بطريقة أو بأخرى - مقولات محددة فى العقل الانسانى · لكن المسيحى يقول وماذا تتوقعون ؟ من الطبيعى ان ذات الله اللا محدود الذى صنع الله وأوجدنى فيه يضع فى فكرى مقولات تتوافق مع المكان الذى وجدت فيه ·

دعونا نناقش ذلك فى العالم المادى الطبيعى ففى جسمى جهاز تنفس يشمل الرئتين · هاتان الرئتان تناسبان الجو المحيط بالأرض الذى أعيش فيه · فأنا لا أستطيع أن أعيش فى المريخ أو الزهرة أو القمر · لكن هذا الجهاز التنفسى يتناسب مع البيئة التى أعيش فيها لماذا ؟ ليس غريبا أن جهازى التنفسى يناسب الجو الذى أعيش فيه · لأن نفس الاله الحكيم الذى خلق الجو هو الذى خلق جهازى التنفسى أيضا · لذلك يجب أن نتوقع هذا التوافق بين الجهاز التنفسى وبين العالم الذى أعيش فيه ·

فان عدنا الى مجال المعرفة فلن نستغرب أن الله جعل تناسبا بين مقولاتى العقلية والعالم الذى أعيش فيه · اذا ففى موضوع المعرفة: ان كان الاله الحكيم قد خلق العالم كما خلقنى فلا عجب ان جعل

مقولاتى العقلية تتناسب مع العالم الذى أعيش فيه لأنه صنعهما كليهما ٠ فهنا المقولات العقلية وهناك مقولات العالم الخارجى فهل استغرب ان وجدت توافقا بينهما ؟ وهذا يختلف اختلافا بينا عن الفلسفة الوضعية التى لم تجد وسيلة لشرح سبب وجود أى شىء ٠ وكما قلت سابقا ان الوضعية بكل صورها انتهت ٠ لأن كلمة « فرض » كلمة ايمانية بالنسبة للوضعية ولا يوجد شىء داخل النظام الوضعى يشرح امكانية وجود الفروض ٠ فهذه الفلسفة تناقض تماما الفكر المسيحى ٠

دعونا نلاحظ عاملا آخر فى الفكر الكتابى عن موضوع المقولات٠ فالكتاب يعلمنا بطريقتين مختلفتين : فهو يعلمنا أولا بعض الحقـــائق بالطريقة التعليمية الوعظية وبالتعبير اللفظى وبالخبر ٠ فمثـلا يعلمنى الأسس التى أتناولهـا فى كتـــابى هذا أما ثانيا فالكتـــاب يعلمنى بطريقة اظهار ما فعله الله فى العالم الذى خلقه ٠ ويجب أن نقـــرأ الكتاب المقـــدس لعدة أغراض ٠ فنحن نقرأه بحثـــا عن الحقائق كمـــا نقـــرأه للتـــأمل الروحى ٠ لـــكن قـــراءة الكتـــاب المقدس كل يوم تؤدى الى شىء آخر ٠ فهى تخلق فينا عقلية جديدة ٠ ففى عصرنا الحاضر نجد أنفسنا محاطين بنظرية وحدة العلل الطبيعية الآلية الجامدة ٠ لكننا عندما نقرأ الكتاب تتكون فينا عقلية جديدة ٠ وهذه حقيقة ليست هينة اذ اننا نتمتع بعقلية سليمة بالرغم مما يحيط بنا من أفكار مفروضة علينا من كل ناحية ــ فى التربية والآداب والفن وفى وسائل الاعلام المختلفة ٠

عندما اقرأ الكتاب المقدس أجد الاله الحكيم يتدخل بنفســـه فى التاريخ وفى الكون ويعمل بطرق تؤكد وتثبت ما قاله عن العالم المحيط بنا وهذا ما اسميه عهد الخليقة ٠ فما يفعله لا يتناقض ابدا مـــع ما يقوله فعندما نعمل الله عبر التاريخ ، فانه يعمل بتوافق تام مع ما عرفنا به عن العالم الخارجى ٠ والأعمال الكونية التى تعملفى الجزئيات تحدد وتؤكد ما قاله عن هذه الجزئيات ٠

لذلك فاننا نجد فى الكتاب المقدس شيئين :

التعاليم الوعظية ثم الأشياء التى نقرأها فنقول « نعم لا شك ان الله يفعل هكذا ففى الكتاب نجد معجزات لكن المعجزات ليست هى كل الكتاب انها أحداث غير عادية لذلك أسميناها معجزات لكننا نجد الله

يعمل عادة فى العالم من خلال القوانين الطبيعية للعالم كما أوجدها ٠ فماء البحر الأحمر يدفع للخلف ، لكنـــه يستخدم لذلك ريحا شرقية ٠ والمسيح يشوى سمكا لكنه يستخدم النار لشى السمك ٠

وهنا وهناك نجد معجزات ، لكن فى معظم الأحيان نجـــد الله يتصرف فى العالم بطريقة تثبت مشاهداتى عن العالم وكذلك ما يقوله الله فى الجزء التعليمى والوعظى من الكتاب المقدس ٠

وهذا المنظار ذو العدستين (عدسة تمثل التعليم الوعظى والأخرى تمثل عمل الله فى التاريخ وفى الكون) نرى فيه توافق العدستين ٠ وهذا يتفق تماما مع قانون الايمان الوستمنستري ٠ ان الله عندما يعلن عن صفاته للانسان فان هذه الصفات تبقى ثابتة وصادقة وحقيقية لا للانسان فقط بل لله نفسه ٠ فالله لا يقص علينا مجرد قصـــة ، لكنه يخبرنا بكل ما هو حقيقى عن نفسه ٠ وما يخبرنا به ليس شاملا ، لأننا محدودون ولا يمكننا أن نعرف شيئا بطريقة شاملة ٠ بل اننا لا نستطيع حتى التفاهم معا بطريقة شاملة لأننا محدودون ٠ لكنه يخبرنا بكل صدق حتى عن أعظم الحقائق عن نفسه ٠ ان الله لا يخدعنا ٠

وعلى نفس هذا الأساس نجد أن العلم ليس لعبة ٠ ان العلم يتغير فى أيامنا حتى انه يتحول الى لعبة ٠ وكما ذكرت فانا لا اصـــدق ولو للحظة ، ان العلم الذى تخلى عن الأساس الذى بنى عليـه ثم فقدفلسفته الوضعية يمكن أن يستمر بطريقة موضوعية حقيقية ٠ فالعلم يتحول الى لعبة بطريقتين : فبالنسبة الى عدد كبير من العلماء صار العلم مباراة أو لعبة فالعلماء يلعبون لعبة معقدة فى حيز محدود حتى انهم لا يفكرون فى المشاكل الحقيقية أو المعنى ٠

وهناك علماء آخرون يعيشون فى معاملهم وقد اغلقوا على انفسهم يقرأون الأرقام ، ويقارنون العينات ٠ وهـــذا نوع آخـــر من اللعب البرجوازى لقضاء الوقت كما يفعل الأغنياء الذين يقضون الوقت فى التزحلق على الجليد ٠ وقد يقضون فى هـــذه الرياضة ثلاثين عاما وأبصارهم معلقة بعقرب الدقائق لحساب السرعة ٠

أما بالنســـبة للمسيحى ، فالعـــالم له معنى آخر انه حقيقة

موضوعية · والعلم ليس مجرد لعبة · أما الطريقة الأخرى الأكثر خطورة فى رأيى فهى الاندفاع نحو العلوم الاجتماعية★

فلأن الناس فقدوا الأساس الموضوعى للتأكد من معرفة ما يعملونه ، فانى أخشى انهم سيجدون أنفسهم شيئا فشيئا يتلاعبون بالعلم حسب حالتهم الاجتماعية أو رغباتهم السياسية بدلا من الثبات على حقائق موضوعية ثابتة·وانى اعتقد اننا سنكتشف شيئا فشيئا ما أسميه بالعلم الاجتماعى ، حيث نجد الناس يتلاعبون بالحقائق العلمية · ان فقد الثقة الموضوعية عند العالم لهو امر لا يقل خطورة عن فقد الثقة عند الهيبيز · ونحن نرى ذلك عند الهيبى الذى غالبا ما يفقد التمييز بين الحقيقة والخيال · فقد انتهت الحقيقة الموضوعية بالنسبة له سواء استخدم المخدرات أو لم يستخدمها · وكم نحس بالأسى لهؤلاء الناس ويجب أن نبكى عليهم حزنا · لكن العالم كثيرا ما يوجد فى نفس الموقف عندما يفقد الأساس للمعرفة ويصبح فى حالة خطرة · ماذا يعنى العلم ان كنت تفقد الثقة الموضوعية أو الأساس المعرفى الذى يعطيك الثقة فى العلاقة بين الذات والموضوع ؟

أما المسيحى فانه يتوقع أن يلمس ما هو حقيقى ليكتشف كل شيء عنه ، ويميز بين الحقيقى والزائف كما كان يفعل العلماء القدامى · وهذا هو موقفنا ، لماذا يتوصل المسيحى الى أن العالم الخارجى موجود فعلا دون شك فى مجال المعرفة ؟ لأن الله خلقه ليكون موجودا وجعل ارتباطا بين الذات والشيء ·

أما النتيجة الثانية للنظرة المسيحية للمعرفة فانها تختص بالاخرين الذين ينظرون الى · من أنا ؟ وما هو عالمى الفكرى الداخلى بالمقارنة بما يراه الناس من وجهة نظرهم ؟ وهذه مشكلة خطيرة بالنسبة لعدد كبير من شباب اليوم · فهم يحاولون أن يتعرفوا على بعضهم لكنهم لا يتعرفون الاعلى المظهرالخارجى الكاذب ·كيف ندخل خلفهذاالقناع؟ كيف نصل الى الانسان الحقيقى الموجود خلفه ؟ ليس على المسيحى أن

★ أنظر كتاب « الكنيسة فى نهاية القرن العشرين » لنفس المؤلف ·

يختـــار بين المعــــرفة الخارجيـــة للأشـــياء وعوالمها الداخلية وبين عـــدم معرفتها على الاطلاق فأنا لا أتوقع معرفة هذا الانســـان الآخر جيدا لأنى محدود • لكنى أتوقع أن ما أعرفه عنـــه من معلومات يكون متناسقا ومنسجما • لأن نفس الاله خلق كل شىء فيه • ان قوة الفكر المسيحى تكمن فى أن كل شىء يندرج تحت الاله الموجود ويتوافق مع الذات الالهية اللامحدودة • وهذا هو النظام الفكرى الوحيـــد فى العالم الذى يتصف بهذا ولا يوجد ناظم آخر يمكن أن يندرج تحتـــــه كل شىء • لهذا أنا مسيحى ولست ملحدا • فى كل النظم الأخرى نجـــد شيئا شاذا لا يمكن أن ينطبق • لذلك نضطر الى بتره أو اهماله • أما المسيحى فهو يرى كل شىء مناسبا وموافقا وفى محـــله الصحيح تحت الفكر المسيحى عن وجـــود الله الذات اللا محدود • دون أى تمزق فى شخصية المسيحى •

وهذا حقيقى عندما أنظر للخارج لأرى العالم كما أنه حقيقى أيضا عندما أنظر الى الداخل لأرى الناس الآخرين وهذا هو المجال الهـــام الذى يشغل فكر معظم الشباب ، كيف يعرفون الآخرين ؟ كيف يتغلغلون خلف المظهر الخشبى الخادع ؟ كيف يعرف الانسان أنه يوجد شىء خلف هذا المظهر ؟ وماذا عن التناقض بين ما قد أكون عليه فى الداخل وما أظهر به فى الخارج ؟ كيف أعرف أى انسان آخر ؟

ان الاعلان الكتابى (طبقا لتعاليم الله) يحكم الانســـان لا من الخارج فقط بل من الداخل أيضا • ما هى آخر وصية فى العهد القديم؟ انها وصية موجهة للداخل • « لا تشته » هذه الوصية تختص بداخـــل الانسان • وبدون ذلك تسقط باقى الوصايا فالوصايا العشر تحـــكم الانسان أخلاقيا لا من الخارج فقط بل من الداخل أيضا • والمعرفة التى يعطيها الله اذ تلمس العالم والتاريخ لا تحكم الانسان من الخارج فقط بل من الداخل أيضا • فنحن نجد وحدة بين الاثنين •

ونحن نجد اذا أن الكتاب يقدم الاخبار والاعلانات الالهيـــة الحقيقية بمقاييس تتعامل مع الانسان خارجيا وداخليا • فداخل الانسان

ليس مستقلا بذاته كما ان خارجه ليس قائما بذاته • وفى كل مرة يصير داخل الانسان أو خارجه قائما بذاته فان هذا يعتبر ثورة • وكل مشاكل الانسان تنشأ من محاولة الانسان التفرد بذاته بعيدا عن الله • فاذا ما انفصل أى شىء وتفرد بذاته عن الله عندئذ تتغلب الطبيعة على النعمة• ولنا نفس الشىء فى مجال معرفة الآخرين • فلا يمكن أن ينفصل شىء عن الله • فالمجالات الداخلية للمعرفة كالمعنى والقيمة ، والمجـــالات الداخلية للأخلاق يحكمها الله كما يحكم العالم الخارجى • واذ ينمـــو المسيحى روحيا فيجب أن يضع عالمه الفكرى وعالمه الخارجى بطريقة واعية شيئا فشيئا أمام مقاييس الكتاب المقدس ولـــكن ماذا عن غير المسيحى ؟ ان المسيحى اذ يتصل بغير المسيحى فانه يجد نقطة بداية وانطلاق لمعرفته بطريقة لا تتوفر لغير المسيحى ، لأنه يعرف من هو هذا الشخص • تقابلت مع شخص من أذكى الأشخاص الذين تقابلت معهم فى غرفتى فى سويسرا عندما جلس أمامى يبكى لأنه كان يعتنق المذهب الانسانى Humanist والوجودى • هجر هذا الانسان وطنه فى احدى ولايات أمريكا الجنوبية وسافر الى باريس مركز هذه الفلسفات• لكنه اكتشف أنها مدينة بشعة لأن أساتذته لم يهتموا به • كانت معاملتهم له غير انسانية مع أنهم يعتنقون الانسانية • وعندما حضر عندى كان قد أوشك على الانتحار • سألنى « كيف تحبوننى؟ ومن أين تبدأون معى؟» قلت له « أنا أستطيع أن أبدأ ، لأنى أعرف من أنت • انك مخلوق على صورة الله » • وبدأنا حوارا من هذا المنطلق • أن المســيحى يستطيع أن يبدأ حوارا حتى مع غير المسيحى بادئا بما هو خارجى حتى يصل الى الحقيقة الداخلية • وبغض النظر عما يقوله الانسان لكنــه انســان كما هو على حقيقته • انه مخلوق على صورة الله • هذه هى حقيقته • ومهما كان مظهر هذا الانسان الخارجى جامدا أو ميتا حتى ليبدو وكأنه آلة الا اننا نثق أن خلف هذا المظهر الجامد أو الميت انسان ناطق يحب ويريد أن يتمتع بمحبة الآخرين • ومهما قال عن نفسه انه انســـان لا أخلاقى فهو فى حقيقته يتمتع بالعواطف الأخلاقية • ونحن نعلم ذلك لأنه مخلوق على صورة الله • لذلك يستطيع المسيحى أن يبدأ حوارا مع غير المسيحى اذ يبدأ من الخارج متجها الى الداخل بطريقة لا تتوفر لغير المسيحى •

لكن يجب أن تكون هناك طريقة أعمق ليتعـــرف المسيحيون على

بعضهم · لنعترف اننا فى حاجة الى التفاهم · فقد سئمنا الآلية اللانسانية التى نجدها من حولنا · لقد سئمنا أن نكون مجرد بطاقات للعقل الالكترونى · فالشابة المسيحية والشاب المسيحى اللذان يريدان أن يتعارفا والزوج والزوجة اللذان يريدان أن يتآلفا ، والراعى الذى يريد أن ينفتح على رعيته وينفتح شعبه عليه كيف يمكنهم الوصول الى هذا من الخارج الى الداخل ؟ ان مشكلة التعرف على بعضنا البعض تكمن فى التناقض بين مظهر الانسان الخارجى وحقيقته الداخلية · وهذه هى المشكلة التى تصادفنا دائما عندما نريد أن ندخل الى أعماق الآخرين للتعرف عليهم · اذا كيف نتصرف ؟

هل تعلم انه بقدر ما يتقبل الانسان التعليم الكتابى عن الانسان الداخلى والخارجى يتزايد التكامل بين الداخل والخارج فنراهما فى وحدة واحدة تحت نفس مقاييس المعرفة والأخلاق ؟ ·

من الحكمة التحرك من الانسان الخارجى الى الداخلى لوجود وحدة متزايدة اذ أن الاثنين مرتبطان بنفس الوحدة الكلية الشاملة · ويجب أن نسمح لمقاييس الله فى المعرفة والقيم أن تحكم الانسان الداخلى والخارجى حتى يقل التناقض بينهما ·

ولكن للأسف ، فاننا لا نطبق المعيار الالهى بدقة على عالم الفكر الداخلى أكثر من الخارج بل لا نطبقه حتى على نفس المستوى · لكننا استنادا على معايير الله فى الحق والأخلاق والقيم والمعرفة نجد سبيلا بل نجما هاديا يوجد بين العالم الخارجى والداخلى · وهذا ينطبق علينا كما ينطبق على محاولة الوصول الى أعماق الآخرين · وعندما ننتقل من عالم الفكر الخارجى الى الداخلى فاننا لا نسير فى بحر لا شاطىء له ـ سواء بالنسبة لنا أو بالنسبة للشخص الواقف أمامنا رجلا كان أو امرأة ·

والى أولئك الذين يسيرون فى مستنقعات الجيل الحاضر نقول لهم هذا هو الجمال · فعندما نفهم هذه الحقيقة نجد فجأة أن الانسان الداخلى ليس مستقلا بذاته · وعندئذ تتوحد الجزئيات الداخلية

للانسان مع الخارجية تحت سيطرة نفس الكلى • وبهذه الوحدة نشكر الله اننا نستطيع أن ندخل الى أعماق بعضنا البعض •

وهذه الوحدة ، يجب أن تكون جزءا من الخلاص ومن عمـــل المسيح المستمر فى الحياة المسيحية • فان فقدان هذه الوحدة هو الذى حرم هذا الجيل اليائس من أى تفاهم حقيقى •

فالأزواج والزوجات الذين ينامون على سرير واحد لعدة سنين يحسنون بأنهم منغلقون بالنسبة لبعضهم لعدم وجود الكلى الذى يربط الجزئيات الداخلية والخارجية معا • أما بالنسبة للمسيحى ، فهـــذا الارتباط موجود • واذ ننمو روحيا نأتى بالجزئيات الداخلية الموجودة فى عالم الفكر – مثل المعانى والقيم والمعرفة والأخلاق – الى معايير الله • ونتغير تدريجيا من الداخل فينعكس على التغيير على الخارج أيضا حتى اننا نعرف بعضنا فعلا •

لقد تحدثت عن نفسى وأنا أنظر للخارج ثم وأنا أنظر للآخرين وهم ينظرون الى • أما النتيجة الثالثة لنظرة المسيحى الى موضوع المعرفة فهو الحقيقة والتصور • ويعتبر هذا الموضوع الى حد ما أهم المواضيع الثلاثة • لقد ناقشنا فى فصل سابق النظرة المعاصرة للمعرفة حيث وجدنا أن الانسان لا يفرق بين الحقيقة والخيال وأنا أنظر الآن للصورة العكسية أى نظرة المسيحى • فأنا أعيش فى عالم فكرى ملىء بالأفكار الخلاقة وفى رأسى تصورات خلاقة لماذا ؟
لأن الله الخالق خلقنى على صورته • قد أصل فى تصوراتى وخيالاتى الى ما فوق النجوم • وهذه حقيقة لا فى حياة المسيحى فقط بل فى حياة كل الناس • فكل انسان مخلوق على صورة الله ، لذلك فلا يوجد انسان محدود فى تصوراته وخيالاته حتى انها لا تتعدى جسمه • واذا سرحنا بتصوراتنا فقد نغير شيئا من هيئة هذا الكون فى أفكارنا أو فى رسومنا أو أشعارنا أو كمهندسين أو حتى عمال فى الحدائق • أليس هذا عجيبا؟ ان تصواتنا ليست مجرد صور فوتوغرافية كما قدمها لنا أنطونيونى فى روايته Blow up بل أنا هناك وأنا قادر على فرض نتائج تصوراتى على العالم الخارجى •

لكن لاحظ انى كمسيحى اثق ان الله صنع العالم الخارجى فلا اختلاط فى نظرى بين الحقيقة والخيال • ان المسيحى حر طليق • انه حر ان يطير لأنه لا يخلط بين الخيال والحقيقة التى صنعها الله — لذلك فهو لا يعانى من اضطراب داخلى • ونحن احرار أن نقرر « هذا خيال » • اليس عظيما ان نكون رساما ، وترسم أشياء مختلفة قليلا عن الطبيعة ؟ فانت لا تصور الطبيعة صورة فوتوغرافية لكنك ترسمها مختلفة قليلا • اليس رائعا أن نكون مخلوقين على صورة الله ونكون قادرين على استخدام افكارنا الخلاقة بهذه الطريقة ؟ ومع اعترافى بأن هذا صحيح ، لكنى كمسيحى اتمتع بقدرة معرفية تمكننى من عدم الخلط بين ما افكر فيه وبين ما هو حقيقى موضوعى • ان جيلنا المعاصر لا يتمتع بهذه المقدرة ، لذلك فان بعض الشباب يعانون من التمزق فى هذه المجالات • اما المسيحيون فلا يجب أن يعانوا من هذا التمزق • لذلك فقد يتمتع المسيحى بالخيال والتصور دون أن يهدد ذلك حياته فى حين أن الانسان المعاصر لا يمكن أن يرى احلام اليقظة او الأفكار الخيالية دون أن تهدد حياته • ان المسيحى هو الشخص الحى الذى تتحرك خيالاته وتتغير وتنتج شيئا مختلفا قليلا عن عالم الله لأن الله خلقنا لنكون خلاقين •

والنتيجة النهائية اننا نرى ثلاث نتائج مترابطة للنظرة المسيحية للمعرفة :

أولا : عندما انظر للعالم الخارجى عالم العلاقات أرى العلاقة بين الذات والموضوع •

ثانيا : عندما ينظر الناس الى وعندما أنظر للاخرين لكى أعرف وافهم شخصا آخر •

ثالثا : عالم الفكر الداخلى — عالم الخيال والتصور •

وأنا اذ انظر الى العالم الخارجى افهم سبب العلاقة بين الذات والموضوع واذ انظر الى انسان غير مسحيى أرى فيه الانسان المخلوق على صورة الله • اما عن علاقتنا كمسيحيين فاننا عندما ندع المعايير

الكتابية توحد الخارج والداخل شيئا فشيئا فاننا نعرف بعضنا بطريقة افضل واجمل واعمق ٠

ولأن المسيحى غير مهدد بالخلط بين الحقيقة والخيال فهو يتمتع بخيال واسع يحلق فى آفاق كبيرة كما يتمتع بجمال الفكر الخلاق ٠

كل هذه الأشياء مدخرة لنا ٠ لكن الاغتراب الحالى فى مجـــال المعرفة يمكن أن يحيل اى مجال من هذه المجـــالات الثلاث الى جحيم حرفى ٠ فانعدام الصلة بين الذات والموضوع ، وعدم امكان تعـــرف الناس على بعضهم والكابوس المريع الذى يتمثل فى الخلط بين الحقيقة والخيال كل هذه الأشياء أو أى واحدة منها يمكن أن تصبح مصدر رعب ٠ لكن فى ظل الوحدة التى أوجدها الله الذات اللا محدود نجد لكل من هذه المجالات معنى ٠ نجد الحقيقة والجمال فهى الحقيقة وهى أيضا الجمال ٠

لكن الانسان ثار على الله وحاول ان يســـتقل بذاته لذلك فان الاغتراب الأعظم هو الانفصال بين الانسان والله ٠ وعندما حدث هذا ضاع كل شيء ٠ هذاالاستقلال الذاتى انتقل الى المجال الأساسى للمعرفة حتى صار الانسان منقسما على اخيه الانسان وعلى نفسه أيضا ٠ فاذا لم توجد مقالات مشتركة بين الخيال الداخلى والعـــالم الخارجى فان الانسان يحيا منقسما ويحس بأنه مغترب عن نفسه ، ليس له كليات تلم شمل الجزئيات فى حياته الخاصة ٠ وتصبح هذه الجزئيات ولها حال فى الداخل يختلف عن حالها الخارجى فيصرخ الانسان « من انا ؟ »

ترى هل أحس اى واحد منكم ـ يا من تقومون بالخدمة المسيحية هذه الأيام ـ بهذا الاحساس ؟ اننا نقابل فى بيتنا فى لا برى بسويسرا شباب قادم من اقاصى الأرض ليقول لنا « لقد أتيت لأحاول ان اجـــد نفسى من أنا ؟ » انه ليس مجرد شعور نفسى كمـــا قد نفسره فى ضوء علم النفس ٠ لكنها مشكلة معرفية ٠ فان محاولة الانســـان للاستقلال بذاته سلبته الوصول الى أى حقيقة محددة ٠ فلا يوجد شيء يثق فيه عندما يحلق خياله فوق النجـــوم ان كان لا يوجد فرق بين الحقيقة

والخيال • لكن على أساس فلسفة المعرفة المسيحية تنتهي مشكلة الخلط هذه ويشفى الانسان من اغترابه •

وهذا هو لب مشكلة المعرفة • ولن تحل المشكلة ما لم نخضع معرفتنا تحت سيطرة الاله الشخصي اللامحدود ، الاله المثلث الاقانيم ، الإله الموجود هناك ، الاله غير الصامت • عندئذ ، وعندئذ فقط لا توجد مشكلة •

ملحق

هل الاعلان الالهى غير صحيح ؟

توجد طريقتان لدراسة هذا السؤال عن الاعلان الالهى الخبرى وعصمته : الأولى بدراسة الفروض ★ السابقة المتضمنة . والثانية بدراسة المشاكل والاعتراضات بالتفصيل وفى هــذا الملحق سندرس الطريقة الأولى . وما لم نفهم الطريقة الأولى فلن نفهم الطريقة الثانية .

يعتبر الانسان المعاصر ، واللاهوت الحديث ، مفهوم الاعــلان الالهى والفكرة المسيحية التاريخية عن عصمة الكتاب ليس خطأ فحسب بل كلام فارغ لا معنى له . وبنفس الطريقة ولنفس الأسباب نجد أن هذه نظرتهم أيضا لمفهوم الخطية والاثم . فهم يرون أن هذا المفهوم اذا قيس بأى مقياس أخلاقى لا يخرج عن كونه كلاما فارغا لكن لنســأل أنفسنا هل هذا الفرض ـ أو هذه الاجابة ـ هو الفرض المناسب والأمثل

ان المسيحية تبدأ بفرض أن كل الأشياء بدأت بداية شخصية . أى أن هناك شخص ما هو الذى صنع كل الأشياء الأخرى . وهذا الشخص يجب أن يكون كبيرا كبرا كافيا أى أنه غير محدود . ولا شك أن كل انسان يتساءل دائما عن هذا الشخص اللا محدود الذى كان هناك . فان كان هذا الفرض صحيحا فان كل المشاكل يمكن حلها بعد ذلك .

وأى شخص ـ بل كل شخص ـ يجب أن يجد تفسيرا لهــذه الحقيقة : « ان الكون موجود . وأنه هو شخصيا موجود أيضا . اذا لا بد أن شخصا كان هناك موجود » .

فان كان هذا الشخص اللا محدود موجودا ففى هذه الحالة يكون

★ المقصود بالفرض هنا المعطيات الأساسية للتفــكير . ونحن نختبر صحة الفرض أو عدم صحته

(المعرب)

كل شيء آخر محدودا بالمقارنة بكماله ولا محدوديته • لكن افترض أنه صنع شيئا محدودا لكن بنفس طول موجته ـ أو بلغة أخرى لنقل على صورته ـ اذا يكون عندنا شخصية لا محدودة غير مخلوقة وشخصية محدودة مخلوقة • وبناء على هذا الفرض فان شخصية الفرد المحدود المخلوق يمكن تفسيرها وعلى أساس نفس هذا الفرض ، لماذا لا يستطيع الذات اللا محدود ، الغير مخلوق ، أن يتصل بالمخلوق متى ما أراد ؟ وطبيعى ان الذات اللا محدود غير المخلوق اذا اتصل بالمخلوق المحدود فانه لا يستغرق نفسه فى هذا الاتصال •

وهنا يبدو لنا شيئان :

١ ـ حتى وان كان الاتصال ـ بين شخصين مخلوقين على نفس المستوى ـ غير شامل ، لكن هذا لا يعنى أن هذا الاتصال غير صحيح•

وعلى هذا فان اتصال غير المخلوق بالشخص المخلوق لن يختلف من حيث النوع عن اتصال شخصين مخلوقين ببعضهما • نعم قد يكون الاتصال غير شامل ، لكنه لا يعنى أنه غير صحيح ، تماما كالاتصال بين شخصين مخلوقين • الا اذا كان هذا الشخص غير المخلوق كاذبا أو متقلب الرأى •

٢ ـ اذا كان الشخص غير المخلوق يهتم حقا بالشخصيات التى خلقها ، فاننا لا نستغرب ـ أو نعتبره أمرا غير متوقع ـ اذا اتصـــل بالمخلوقات ليخبرها بأشياء عن طبيعته • والا فان المخلوقات ستصبح غير قادرة على معرفة أشياء كثيرة اذا بدأت بنفسها فقط كنقطة مرجعية محدودة •

وفى هذه الحالة لا نجد سببا جوهريا يفسر لنا امكان الخـــالق توصيل بعض الحقائق الغامضة لكنه لا يستطيع توصيل بعض الأخبار والأفكار بخصوص العالم المحيط بالمخلوق • دعونا نسمى هذا من قبيل المرح بالعلم • ولماذا لا يستطيع الخالق أن يوصل بعض الحقائق الخبرية الى المخلوق عن النتائج التى حدثت بعد أن خلق مخلوقاته ؟ ولنسم هذا تاريخا •

لا يوجد سبب ـ نفكر فيه ـ يمنع هذا الشخص غير المخلوق من الاتصال بمخلوقاته لتوصيل هاتين الحقيقتين • قد يكون هذا الاتصال غير شامل لكن لماذا نظن أنه غير حقيقى ؟ •

هذه المناقشة عن الاعلان الالهى الخبرى هى الموضـــوع الذى ينادى به كتابنا المقدس • فان رغب الخالق أن يتصل بمخلوقاته بطريقة يمكن كتابتها بأسلوبهم الخاص وأن يعطيهم التفاصيل الدقيقـــة التى يريدهم أن يكتبوها فى مجال الحقائق الدينية والكونية والتاريخية فلن نستطيع ان نقول ـ قولا مطلقا ـ انه لا يقدر أو انه لن يفعل ذلك • وهذا ما ينادى به الكتاب فى موضوع الوحى •

وفى هذا الاطار لماذا نعتقد انه أمر لا يمكن ان نعقله ان يتصـــل الخالق بالمخلوق عن طريق اللغة ، ما دام هذا الخالق قد صنع المخلوق قادرا على التفاهم باللغة ؟ ونحن كائنات ناطقة متحدثة بلغة حتى ولو لم نعرف السبب •

وما لم نؤمن بالفروض الأخرى الطبيعية فلا يوجد سبب يجعل حديث المسيح مع شاول باللغة العبرية مستخدما التعبيرات والكلمات العادية ، (أع ٢٦ : ١٤) أو حديث الله الى شعبه فى سيناء ، أمـــرا غير معقول •

وقد يحاول انسان أن يخفى ايمانه بالفــــروض الطبيعية فيناقش الموضوع مستخدما تعبيرات دينية فيقول مثلا « ان يسوع أعطى لشاول اختبارا بدائيا بدون مضمون حتى ان الكلمــــات الواردة فى النص الكتابى للتعبير عن هذا هى مجرد كلمات تعكس نظرات للحياة والتاريخ والنظرة السائدة فى ذلك الوقت » وعندما يقول شخص مثل هــــذا الكلام فانه يتركنا بايمان مساو لقولنا « انا اومن •••• » دون اكمال الجملة أو دون قدرة على اكمالها •

بل ـ اكثر من ذلك ـ ان كان الخالق قد أعطى الانسان المعلومات التى يريدها فى كتاب تاريخ فلماذا يعتبر شىء بعيد الاحتمال ان يوصل الله حقائق التاريخ الزمانى والمكانى بصدق فى هذا الكتاب ؟

أليس غريبا أن نظن أن هذا الشخص الخالق - رغم أنه غير كاذب أو مخادع - يعطى الانسان الحقائق الدينية فى كتاب ظاهره وباطنـــه التاريخ ومع هذا يكون هذا التاريخ ملفقا مشوشا ·

لا شك أن هذه الأفكار تبدو غريبة أشد الغرابة ما لم نعتقد فى الفرض القائل بأن هذا الكتاب ما هو الا تأملات الانسان عندما ينظر الى فوق · وهذا الفرض يدخل فى اطار نظرية وحدة العلل الطبيعية ·

والكتاب المقدس لا يقدم لنا مستويين مختلفين · فهو لا يقـــدم الحقائق الدينية منفصلة عن التاريخ ، لكنه يلجأ للتاريخ - القـــابل للامتحان والتحقيق - كطريق لاثبات الحقائق المعطاة · لكن الكتـــاب لا يشير الى أن التاريخ الزمانى والمكانى - الذى يغلف الحقائق - هو وحده الغير معرض للخطأ ·

لماذا لم يعلم الخالق الشخص المخلوق - بكل صدق - معلومات على المستوى الذى نستخدمه ونعرفه نحن المخلوقين · ولو كان تعليما غير شامل لكنه حقيقى ؟ فهذا هو الأسلوب الذى نحصـــل به على المعرفة من نظرائنا المخلوقين · بل لماذا لا يستطيع هذا الخـــالق أن يعرفنا عن نفسه بصدق - ولو بطريقة غير شاملة - ما لم نتقبل الفرض أن هذا الخالق ليس الا فكرة فلسفية · فاذا بدأنا بالخالق الذى خلق الانسان على صورته فما الذى يســـتبعد التعبير الذى ورد فى قانون الايمان المطول الذى نطلق عليه قانون وستمنستر المطول ، أن الله أعلن لنا عن ذاته فى كتابه المقدس ؟ هل يوجد سبب يدعو هذا الخـــالق الا يعرفنا بكل صدق عن ذاته ولو معرفة غيرشاملة ؟

فاذا وصلنا الى هذه المرحلة فاننا نجد شيئين واضحين :

أولا : اننا اذا بدأنا بالفرض بأن كل الأشياء بدأت بالكتـــلة أو الطاقة فان الاعلان الالهى أو عصمة الكتاب تصبح غير ذات موضوع ·

ثانيا : اذا بدأنا بالفرض بأن الذى بدأ العالم شخص أو ذات ، فان هذه الأفكار تصبح معقولة · ومدى معقولية الموضوع تتوقف على

اى الاتجاهين نتخذه كبداية أو بأى الفرضين نبدأ بحثنا • فاذا بدأنا بالبداية اللاشخصية فان المسألة تتحول عن مجرد التفـكير فى امكان اتصال الشخص غير المخلوق بالشخص المخلوق ويصبح هذا الفـرض غير ذات موضوع من أساسه •

أما لذا بدأنا بالبداية الشخصية فان سؤالا هاما يلح علينا : ألا يعتبر اتصال شخص بآخر على نفس المستوى غير معقول أيضا ؟

فاذا بدأنا بهذا الفرض فلن نجد أى معنى لحديث شخصين معـا أو لانصات شخص لآخر الا اذا كان لنا ايمان ضـد كل الافتراضات الأساسية •

بل الأسوأ من ذلك ، ان من يفترض هذا الفرض لا يستطيع اقناع الناس العاديين (مثلى انا والآخرين) بفكرة انهم يتحدثون بلا معنى • فكل خبراتنا تقنعنا ان الآخرين يسمعوننا بصدق ولو بغير شمول •

الا يشبه ذلك الصورة التى صورها فرنسيس بيكون Francis Bacon

على الانسان ان يصرخ ؟ لكن الأمر كله ضياع ولعنة ، بما فى ذلك الصرخة نفسها •

والان فى ضوء هذا التشويش الكامل الذى يقودنا اليه الفرض الآخر (اللا شخصى + الزمن + الاحتمالات) فان الفرض الأول الذى يفترض البداية الشخصية يستحق منا نظرة اعتبار خاصة •

فان كان أصل الوجود شخصى فان فكرة اتصال مخلوق بمخلوق آخر أو اتصال الخالق بالمخلوق لا تصير غير معقولة أو غير محتملة •

ولعل أهمية كل هذا البحث ترجع الى ان عددا كبيرا من الناس، (بما فيهم أولئك الذين يدعون انهم مبشرون) ـ ممن تركوا المفهـوم التاريخى والكتابى عن الاعلان الالهى وعصمة الكتاب ـ قد فعلوا ذلك لا عن اقتناع وبعد دراسة تفاصيل المشكلة بطريقة موضوعية بل لأنهم

تقبلوا الفرض الاخر اما بالطريقة التحليلية باعتبارها (مودة) هذا العصر او بطريقة عمياء • وغالبا ما يفعلون ذلك وكانهم طعموا بهـــذه الأفكار دون أن يتبينوا ما حدث لهم •

ان من يتقبل الفرض الآخر ، مخالفا البرهان الواضح لاتصـــال انسان بآخر بطريقة حقيقية ــ ولو انها غير شاملة ــ كيف يستطيع ان يسمع ؟ غريب حقا ان نستطيع توصيل مفهوم رفض انسان لفكرة وجود الذات الغير مخلوق ان لم يكن هناك اى طريقة لاثبات كيف ، ولماذا ، وماهية ، الاتصال بين الانسان وبنى جنسه • ويزيد العجب ان رفضنا أن نتفهم حقيقـــة الذات غير المخلوق مع انه يفسر لنا كيف ، ولماذا ، وماهية ، الاتصال بينى وبين بنى جنسى •

واذا وصلنا الى هذه النقطة فاننا نستطيع تفهـــم تفاصـــيل المشاكل • فالنظرة التاريخية للكتاب والكنيسة والاعلان الالهى والعصمة لم تعد خرافة كما يدعون • وحتى معظم المشاكل التفصيلية نراها مختلفة تماما متى استبعدنا فكرة انها خرافة وعالجناها على هذا الأساس •

(٢)

الايمان مقابل الايمان

يجب أن يحلل الانسان كلمة ايمان ليرى انها قد تعنى شـيئين متناقضين تماما ·

لنفرض اننا نتسلق جبال الالب · وعندما نصل الى صخرة كبيرة عالية جدا ، يغمرنا الضباب فجأة · ويستدير القائد ليقول لنا « ان الجليد سيتكون وانه لا أمل لنا فى الحياة · وقبل أن يصبح الصباح سنكون قد تجمدنا كلنا ومتنا على قمة هذا الجبل » ولكى يسـاعدنا القائد على الاحساس بالدفء فانه يجعلنا نسير رغم كثافة الضباب حتى ان كل واحد منا لا يعرف مكانه وأين هو · وبعد ان نسير على هذا الحال ساعة ، يسأل احدنا القائد قائلا : « افترض أنى سقطت على صخرة تبعد عشرة أقدام الى أسفل ، ماذا يحدث لى ؟ ويرد القـائد قائلا « ان بقيت للصباح فانك تحيا » عندئذ يقوم أحد أفراد المجموعة – رغم الضباب – بالتدلى بالحبل دون أى معلومات يستند اليها ·

هذا نوع من الايمان نسميه قفزة الايمان · لكن افترض اننا بعد فترة من بقائنا على هذه الصخرة ، وفى وسط هذا الضباب ، والجليد يتساقط ، توقفنا لنسمع صوتا يقول « انكم لا تروننى ، لكنى أعرف مكانكم تماما من أصواتكم · وأنا واقف على قمة صخرة أخرى · لقد عشت على هذه الصخرة أنا وأسرتى مدة ستين عاما · وأعرف كل شبر فيها · وأؤكد لكم انه على بعد عشرة اقدام أسفل الصخرة التىأنتم واقفون عليها نتوء ، فاذا تدليتم ونزلتم عليها اثناء الليل فسأجدكم فى الصباح » ·

وأنا لن اتدلى فورا لأنزل ، بل لا بد أن أسأل بضعة أسئلة لأحاول التأكد من أن هذا الرجل يعرف ما يقول ، ولأتأكد من انه ليس عدوا لى فقد أسأله عن اسمه لأتأكد أنه من سكان الجبال فعلا★ · فهذا سيكون

★ فى جبال الالب فى سويسرا يتسمى سكان الجبال بأسـماء معينة تدل على ان أصحابها من سكان الجبال ·

له تأثيره الكبير على طبعا • ورغم انى اشعر باليأس ، وبقيمة الوقت الذى يمر لكن لا بد أن أساله اسئلة كافية من وجهة نظرى • فاذا اقتنعت تماما عندئذ امسك بالحبل واتدلى •

هذا ايمان لكنه لا يمت بصلة الى ايمان الشخص الأول • وفى الحقيقة ان اطلقنا على تصرف احدهما ايمـــانا فيجب أن نطلق على تصرف الشخص الآخر لفظا آخر يميزه

ان الايمان المسيحى التاريخى ليس قفزة ايمان بمفهوم كيركجارد لأن الهنا « غير صامت » وهو يدعونى أن أساله كل الأسئلة الكافية عن كل التفاصيل ، وعن وجود الكون المعقد ، وعن وجود الانسان • انه يدعونى أن أسال ما يكفينى من الأسئلة • عندئذ أومن به واسجد امامه فى مجال ما وراء الطبيعة لأنى أعرف انى موجود لأنه خلقنى • واسجد له فى مجال الأخلاق لأنى محتاج الى ما يقدمه لى المسيح المصلوب الذى مات نيابة عنى وقام ليشفع فى •